اسماعيل صبرى

بيانه وذكرى

كان أول ما قرأت من شعر صبرى أبيات وجدتها فى مجموعة بخط والدى دوّن فيها ما تلقّفه من شعر أدباء عصره فى رحلاته الى القاهرة وكان رحمه الله يخالطهم ويشهد مجالسهم ، ومن هؤلاء الأدباء جماعة من الشعراء الذين جمع العنصر التركى الكريم بينهم وبين والدى ، وأشهرهم حسن حسنى الطويرانى ، وسليم رحمى . فاذا عاد من إحدى هذه الرحلات كان أول ما يتحفنى به من الهدايا ما اشترى من الكتب ، وما حمل من هذه الاشعار . وكنت يومئذ صبياً يولعنى والدى بالأدب ويجيزنى عليه . وهذه هى الأبيات مسندة الى (اسماعيل بك صبرى رئيس محكمة الاسكندرية) وهى فى تهنئة الخديو توفيق بعيد الأضحى عام ١٣٠٦ من التأريخ الهجرى كما يؤخذ من ختامها :

إن هَيَّمَ الشعراءَ النغرُ والريقُ ... وشاقهم كأسُ صهباءٍ وابريقُ

فلى بمدحك (توفيق العلى) كلفٌ ... لم يثنى عنه هيفاءٌ ومعشوقُ

حققتَ آمالَ مصرٍ حيث كان لها ... الى عُلاك مَدى الأيامِ تحديقُ

وشِدتَ فى مصر فخراً لا خفاء له ... فليس يُنكره فى الكونِ زنديقُ

فالعينُ ما طمحت إلا رأت أثراً ... له بتاجكَ ترصيعٌ وتنسيقُ

وهدَّ حُكمك ركنَ الظالمين ، وقد ... عدلتَ حتى أحبَّ العدلَ محفوقُ

مولاىَ ! وافاك بالاقبال عيدُ فِدًى ... بالبشرِ والمينِ مصحوبٌ ومرفوقُ

فعش لأمثاله طولَ المدى فرحاً ... واسعد فانت بعين الله مرموقُ

واهنأ به فصفاه الوقتِ أرّخهُ : عيد الفداء ببشر جاء (توفيقُ)

وأول مالقيتُ اسماعيل صبرى الذى أصبح بعد ذلك من ملوك الشعر وأمراء البيان ، يوم جاءنى رسوله يدعونى لموافاته بدار الحكم فى مدينة دمنهور ، وحاكم الاقليم يومئذ محمد محمود باشا . فلما لقيت صبرى فى منصرفه من حضرة الحاكم وكنت على شوق دائم اليه ، صافحته لأول مرة وفى نفسى من النهيب والانقباض ما انطوى وشيكاً فى ذلك البشر المتدفق الذي بدأنى به ، وما انقضت التحية حتى أخذ بذراعى يدسّه تحت إبطه ويقول :ويحك يا محرم ، ماذا فعلت بالرجل ؟ ! انه لشديد الحنق عليك ، لقد روضته فما ازداد الا شراسة وغلظة !

كان بينى وبين محمد محمود باشا أمر لم يأخذ فيه بالحزم ولا أجراه على نظر أو روية ، وكان حوله من مشيرى السوء فئة أعانته على الشطط والتسرع ، وجاءت جولة العباس أمير مصر فى اقليم البحيرة قبل رحلته التى انقضى بها عهده فى الحكم والامارة فبعث المدير المتحرق الصدر الى حافظ ابراهيم ببعض هؤلاء المشيرين يسألونه أن ينظم تحيةً للأمير تلقى بين يديه فى دار المدرسة الصناعية بدمنهور . فقال لهم : وأبن أنتم من محرم ؟ قالوا: انا معه على جفاء وفرقة، فقال: ارجعوا الى صاحبكم فنبئوه انه قد ركب أمراً عظيماً ، وإنى لبراء منكم حتى يرضى — وعلمتها من حافظ فشكرته وأبحته أن يكون عند رجائهم فيه ، فنظم لهم قصيدة عصماء قال فى مطلعها :

أشرق عباس على شعبه كأنه المأمون فى ركبه

ونظمت أنا تحيتى للأمير ثم بعثت بها الى جريدة (المؤيد) ، فظهرت فيها وركب الأمير يودع دمنهور ، ولم تظهر قصيدة حافظ الا بعد ذلك بيومين ، ومطلع قصيدتى :

أوَ كلما سكن المشوقُ فأقصرا هاجته أسرابُ المها فتذكرا ؟

ومنها فى الغزل وقد علمت أن ألسنة الوشاة تناولتنى لدى الأمير فزعموا أنى فى عقيدتى الوطنية على الحراف :

مشت التمائمُ بيننا فعرفتُها وعرفتُ من لحظات عينك ما جرى

ومنها ، والخطاب للأمير :

صدقُ الولاءِ أمانة لكَ فى دمى يأبى لها الايمانُ أن تتغيرا

أنا مِن طيورِكَ ، إن دعوتُ مغرّداً ... عاد الجديبُ المحلُ روضاً أنضرا
(النّيلُ) يشهدُ أنني لم آلهُ ... برّاً ، ولستُ بصادقٍ إن أنكرا
لستُ الذي يرضى العقوقَ سجيّةً ... ويرى التقلّبَ في المذاهب متجرا
لو كنتُ طالبَ حاجةٍ لرأيتني ... أسعى اليها في ذراكَ مشمرا
ولو انني ممن يتوق الى الغنى ... لوجدته بنَدَى يديكَ ميسّرا
ما في الحياة على تعاظمِ شأنها ... ما يَستخفُّ العاقلَ المتبصّرا

علم اسماعيل صبري من الصديق حافظ ما كان من أمري مع محمد محمود باشا فوفد الى دمنهور يؤدّي ما فرضه على نفسه من حقّ السفارة بين أديب عرف للأدب قيمته فصانه عن مجال الملق ومعرض الدهان ، وبين حاكم اقليم يعتز بمنصبه وبيته ويرى لنفسه أن يكون السيد النافذ الأمر في جميع الأمور ، ولم أكن على علم من قبل بأمر هذه السفارة التي لم أكن لأشير بها لو أنني خوطبت فيها ، ولكنها حميّة حافظ ، ومروءة صبري ، رحمهما الله ، وقضى عني حقهما العظيم نعيماً وطيباً .

قال لي صبري وهو يصف شراسة محمد محمود باشا : دعه عنك فقد أصبح أمرك بيد الأمير ، وانك عنده لبالمحلّ الذي تريد ، وقد قرئت عليه قصيدتك فاعجب بها وسترى ! قلت له : دع عنك الحاكم والأمير ، وقل لي متى يطلع علينا الرئيس بصبرية جديدة ؟ فتأوّه وقال : لقد كبرت وضعفت نفسي ، وانما الشعر أخو القوّة وصاحب الشباب ، قلت له فما بال :

لو أنّ أطلالَ المنازلِ تنطقُ ... ما ارتدّ حرّانَ الجوانح شيقُ ؟

انها وحقك لكما يقول أبو تمام :

قد أوتيت من كل شيءٍ نعمة ... وَدَداً ، وحُسناً في الصبا مغموسا

فابتسم رحمه الله ، ثم نعب القطار فودعته ؛ وكان هذا أول عهدي به وآخره

صلتي الشعرية بصبري

لم يجر بيني وبين صبري قبل هذا الحادث ولا بعده شيء من المطارحات الشعرية بل ولا الكتب أو الرسائل ، غير أنه شاع بعد هذا اللقاء أنه أصيب برعاف شديد فقلت فيه ، وإخال أني أذعتها في احدى الصحف :

أشفقتُ من نبأ الرئيس ، وأشفقتْ ... دُوَلُ الفريضِ ، فصيحُها والأعجمُ
سالَ الدَّمُ المسفوحُ منه معانياً ... سالتْ لروْعتها النفوسُ الحُوَّمُ
ما كنتُ أعلمُ ، والحياةُ تجاربٌ ... أنَّ البدائعَ مِنْ معانيها الدَّمُ
رُعِفَ اليراعُ ، وقد جرى برعافهِ ... نبأٌ تذوبُ له الصحائفُ مؤلمُ
عافاكَ ربُّكَ ، إنَّ مِنْ آياتهِ ... هذا الذى يُوحى اليك فتنظمُ
سُؤْلٌ أمُدُّ بهِ اليدين ، ودعوةٌ ... نطقَ الضميرُ بها ، فترجمها الفمُ
للقوم مِنْ غُفْلِ القوافى ما ترى ... ولكَ المشوفُ مِنَ البيانِ المُعْلَمُ
إنَّ الصحائفَ ما تزالُ مَرُوعةً ... حتى يصافحها الرئيسُ الأعظمُ

وعزّى صبرى صديقى الشاعر الأديب ولىّ الدين يكن رحمه الله فى وفاة والدته بأبيات قال فيها :

إنى أُعزّيكَ وأبكى معكْ

فقلتُ فى تعزيتى لهذا الصديق الكريم ، ولا أعلم ما ذا كان موقعها فى نفس الرئيس :

لقد وجدت نفسى لوجدِ (محمدٍ) ... أسًى جللاً ، واستشعرتْ أسفاً جمّا
أخى ، والعوادى ما تزالُ مُغيرةً ... على كل حُرٍّ لا يُطيع لها حُكما
أعيذُكَ أن تَلقَى الخطوبَ مُرَوَّعاً ... وأنتَ الذى رَوَّعتَ أبطالها قِدْمَا
رَمَيْتَ صفوفَ الحادثاتِ بمثلها ... وأىُّ فتًى يَرْمى الصفوفَ ، ولا يُرمَى ؟
يُعزّيك شيخُ العبقريين باكياً ... وأبلغُ ما عزّاكَ ما جاوزَ الفَهْمَا

وسيّرتُ الى الصديق حافظ قصيدة أطارحه فيها وهو معتقل بدار الكتب مطلعها :

رُوَيْدَ الهوى يا ليلَ ، لو يقنعُ الهوى ... بما نالَ من دمعى ، وما نلتِ من دَمى

ومنها فى ذكر الرئيس :

إذا جئتَ شيخَ العبقريين زائراً ... فخذْ لقريضى الإذنَ قبل التهجُّمِ

وإنْ أنتَ شارفتَ السُّتورَ مُنيفةً فسَّحْ ، وقبِّلْ ، ثم حيِّ ، وسلِّمِ
وصِفْ من بنات الشوق كلَّ شجيَّةٍ ترنُّ رنينَ الطـــائر المترنِّمِ
تَطلَّعُ من حول الفؤاد ، وترتقي إلى العين مِنْ حرِّ الغليلِ بسلَّمِ
وتنسابُ تلقى كلَّ ركبٍ ، وما بها سوى أن ترى ركب (الرئيس المعظَّم)
إذا هجمتْ ذكرى صديقٍ لديكما فذودوا عن التَّهجاع ذكرى (مُحرَّم)

ولى فى الرئيس صبرى مرثية بقيت مطوية الى اليوم لسرّ لم أكن أعلمه ، فلما أهاب بى صديق الشاعر الهائم ، شاعر الحب والجمال الدكتور زكى أبوشادى ، أن أكتب كلمتى هذه عنه علمت ان الأيام قد ادّخرتها لتذاع فى ختام هذه الكلمة وستأتى فى مكانها .

شعر صبرى

لم يكن شعر صبرى أوّلَ عهده بالأدب يبشر بشاعر مقتدر يُحدث أثراً يذكر فى عالم الشعر ويوقع باسمه فى سجل الخلود وجريدة الذكر ، وقد جشاك بمنال من شعره فى ذلك العهد الذى كان كلّ شاعر فيه خيراً منه ، وقد مرّ بك ذكر سليم رحمى فأنا أذكر لك بعض ما دُوِّن له فى تلك المجموعة الخطية التى نقلتُ عنها ذلك المثال السيء لتعلم أن الرئيس صبرى باشا شاعر آخر غير اسماعيل صبرى بك رئيس محكمة الاسكندرية . قال سليم رحمى من قصيدة يمدح بها الخديو توفيق ويهنئه بالعيد :

فى خِبرةِ الدهر ما يُغنى عن الخبرِ وفى الحوادثِ تذكارٌ لمدَّكرِ
والناسُ كالنَّبتِ منهُ ما له ثمرٌ بغير شوكٍ ، وذو شوكٍ بلا ثمرِ
والمرءُ مهما سمت فى الناس رتبته فليس الاّ بما يبديهِ من أثرِ
ما شئتَ فاعمل ، فمهما كنتَ مُستتراً تُعلمْ سجاياكَ بين البدوِ والحضرِ

ومنها :

وارحمتا لعلومٍ ما بلغتُ بها نفعاً ، وقد ضاع منّى أنفسُ العمرِ
هذى العلومُ التى لم تُجْنِنى ثمراً ما لى أذودُ الردى عن عُودِها النضرِ؟

وأىُّ فائدةٍ فى النّحو أطلبها ... إن كان لم (يرتفع) بين الورى (خبرى) ؟
وما النتيجةُ من وزن العَروض إذا ... لم يحوِ مَعنايَ بَيتٌ غيرُ منكسر ؟

ومنها :

أستغفرُ الله إنى فى حمى مَلكٍ ... لن يستطيع زمانى عنده ضررى
عزيزُ مصر الذى سارت مآثره ... فى الخافقين مسيرَ الشمس والقمرِ
إن جال بالفكر قلت الشهبُ ثاقبةٌ ... أو قال ، قلت خضمٌّ جاء بالدُّررِ

وقال فى الختام :

عبدٌ بساحتكَ العلياء حلَّ فان ... تأمره بالعودِ وافانا على قدرِ
ماذا يقول (سليمٌ) فى المديح وقد ... علوتَ عن كلِّ منظومٍ ومنتثرِ

لا أقول إن هذا شعرٌ ، ولكنى أقول إنه أشبهُ بالشعر وأقرب اليه مما كان يقول صبرى فى ذلك العهد ، وصبرى منذ القديم شاعر مقلٌّ ، فهو لا يستطيع المطوّلات ولا يكاد يجيدها ، وقد نضجت شاعريته فأبدع فى مواضع كثيرة ، ومواطن شتى ، ولكنه بقىَ الشاعر المحدود ، والفنان الذى يأخذ من الفنّ ما يعجبه ، ويأبى أن يعطيه ما يحبه هو ويرضاه .

ينظم صبرى فى بعض الأغراض العامة فيتنكر لك فى كثير من شعره ، ثم يفاجئك على يأس باللمحة الفنية الرائعة فتعرفه ، وتحسّ أن نفساً جديدة حاوة تشعل نواحيك وتشعل جوانبك : ذلك أن صبرى لم يوهب قوة التحكم فى هذه الأغراض أو هو لم يرض نفسه عليها منذ النشأة الأولى ، فهى غير مستقرة الصور عنده ، ولا متمكنة الاصول والأسباب من شاعريته وطبعه . هو شاعر يهزّه الغرض النفسى فيقبل عليه ، ويشوقه المعنى البديع بعينه فيطلبه فى مكانه من الشعر الطليق ، ويستكثر من الشباك والحبائل يبثها حوله ، ثم يتلطف فى اجتذابه اليها ، فتراه وقد وقع فى يده قنيصاً غير موقوذ ولا جريح ، وهو إذ يعمد الى هذا تراه فى قلق فكرى دائم ، واضطراب فنى مستمر ، تراه متنافراً الى أقصى حدود التنافر فى القطعة الواحدة من شعره ، فهو يعطيك من مجموع هذه القطعة صورة آلية جافة ، تتصايح حولها وبين ثناياها صور أخرى مضطهدة أو ملغاة لغير ما سبب سوى انه لا يريدها وانك حين تظلم الفن والذوق والعاطفة لتظفر بمعنى بديع أو صورة حسنة تغرم بها

وتحرص فى نفسك عليها لجدير أن تعرف مكانك من ذوى النصفة وأولى المعدلة ، وتتبين كم بينك وبينهم من آماد طويلة ومسافات واسعة .

من مطولات صبرى قصيدة (فرعون وقومه) وقصيدة فى رثاء أمين فكرى باشا ، وأخرى فى (مذنب هالى) وقصيدة فى تتويج السلطان حسين ، وقصيدته المشهورة (لو أن أطلال المنازل تنطق) وانا لبادئون بقصيدة فرعون وقومه ، قال :

لا القوم قومى ، ولا الأعوان أعوانى ... اذا ونى يومَ تحصيل العلا وانى
ولستُ إن لم تؤيدنى فراعنة ... منكم بفرعون عالى العرش والشانى
لا تقربوا النيل إن لم تعملوا عملاً ... فماؤه العذبُ لم يُخلق لكسلانى
ردُّوا المجرّة كدّاً دون مَورده ... أو فاطلبوا غيره رياً لظمآنى
وابنوا كما بنت الأجيال قبلكمو ... لاتتركوا بعدكم فخراً لانسانى
أمرتكم فأطيعوا أمرَ ربكمو ... لا يثنِ مستمعاً عن طاعةِ ثانى
فالملك أمرٌ وطاعاتٌ تسابقه ... جنباً لجنبٍ الى غايات احسانى
لا تتركوا مستحيلاً فى استحالته ... حتى يميط لكم عن وجه إمكانى

يسوق صبرى هذه الابيات على لسان فرعون الى قومه يستحثهم بها على بناء الأهرام واقامة الآثار العظيمة التى نشاهد اليوم بقاياها أو نقرأ أخبارها ، وهى كما ترى من الشعر القصصى المطلق أى الذى لا يرجع الى أصل معروف . ولا يتقيد فيه الشاعر بغرض خاص أو صورة بعينها ، ومع هذا فانت لاتجد أثراً لعبقرية صبرى فى هذه الأبيات بل أنت تراه شاعراً متواضعاً يتناول أغراضه من أقرب مكان ، ويسوق شعره فى غير ما تأنق ولا افتنان ، وانك لتراه الى ذلك قليل التحفظ ، بعيداً عن الاحتراز . وهذا قوله (تحصيل العلا) أتجد فيه تلك الروعة التى تحب أن تراها فى شعر أمثاله من المبرزين ؟ ان كلمة تحصيل لا عهد لها بهذا النوع من الشعر ، وهى وإن كانت سليمة من جهة اللغة ، فانّ للشعر لغة خاصّة ، ولو أنصف صبرى لترك الكلمة لكتّاب الدواوين وعمالها من جماعة الجباة والمحصّلين ، ولأبقاها شركة بينهم وبين طلبة العلم وتلاميذ المدارس ، فما هو إلاّ تحصيل المال أو العلم ، ومتى غلب الاستعمال على كلمة تغير حكمها أو كاد يكون كذلك . ولشاعر قديم فى الباب الثانى :

أكرموا العلم وصونوا أهله عن جهول حاد عن تبجيله
انما يعرف قدرَ العلم مَن سهرتْ عيناه فى تحصيله

حُصِّل الشيء لغة جمع ومُيِّز ، واليك أمثلة من أشعار المتقدمين تبين لك كيف ، وفي أيّ الأغراض ، كانوا يستعملون هذه الكلمة : قال البحترى فى المعتزّ بالله :

إذا حُصِّلت عُليا قريش تناصرت مآثره فى فخرهم ومناقبه

وقال أبو تمّام :

لقُدِدْتُ من شيم كأنّ سيورها يُقددنَ من شيم السحاب المرزم
لو قلتُ حُصِّلَ كلها فى حاتم أو بعضُها ، لدعيتُ دافع مَغرم

وقال الأبيوردى :

وإذا تعدّ حُصِّلتْ أنسابُها فهُمُ الذُّرى والجوهر المتخيَّرُ

ليس فى هذه الأمثلة شيء من تلك الصورة النافرة التى وقعت فى شعر صبرى ، وانك حين تنتقل معى الى البيت الثانى من قصيدته لترى أنه لم يقل شيئاً ، فان العامة من الناس ليعرفون أن الملوك بالشعوب ، فليس لواحد منهم فى ذاته حول ولا طول ، وهل قال صبرى على لسان فرعون الاّ ما قال ذو القرنين فى قصة بناء السدّ (فأعينونى بقوّة) ؟ وما ذا ترك الشاعر لفرعون بعد قوله فى هذا البيت — إن لم تؤيد فراعنة منكم — ؟ لقد تمّ التماثل بهذا الوصف بين فرعون وقومه ، أو بينه وبين رعاياه ، وما كان فرعون ليقول مثل هذا ، فأما قول الشاعر فى البيت الثالث إن ماء النيل لم يُخلق لكسلان ، فوصفٌ عامّ لا معنى لأن يقصر على النيل أو على سواه ، وهل فى هذا الكون من شيء صغيراً كان أو كبيراً إلاّ وقد خُلق لذوى الهمّة والمقدرة من هؤلاء العالمين ؟

يقول صبرى فى البيت الرابع على لسان فرعون لقومه : إن كنتم من الكسالى العاجزين فدعوا ماء النيل لا تقربوه ، وهلمّوا فاصعدوا الى المجرّة تتخذونها مورداً لكم ، أو اطلبوا لكم مورداً آخر سواه . هذا ما يقوله صبرى فى البيت الرابع فهل ترى هذا ممّا يستقيم فى العقول ، أو يتألف حتى فى موضع التباين من النفوس والطباع ؟

أما والله لو قالها شاعر آخر غير صبرى لحلقنا صادقين أنه يجهل أن مكان المجرّة فى السماء ، وهل فى المجرّة ماء ، أم كان فرعون من الشعراء !! قال فى البيت الخامس :

وابنوا كما بنت الأجيالُ قبلكمو لا تتركوا بعدكم فخراً لإنسانُ

الشطر الأول من قول الشاعر

نبنى كما كانت أوائلنـــا تبنى ، ونفعل مثل ما فعلوا

والثانى من قول الشريف الرضى :

مِن معشر أخذوا الفضلى فما تركوا منهـــا لمن يطلب العلياء مُتَرَكا

وللشريف فى هذا المعنى :

لهـذه كان الزمانُ يَنتظرْ لم يَبقَ مِن بَعدكَ للمجدِ وطرْ

وقال صبرى :

أمرتكم فأطيعوا أمرَ ربّكمو لا يثنِ مستمعاً عن طاعةٍ ثانِ

بين هذا البيت والبيت الثانى تناقض بيّن وتخاذل معيب ، فهناك يقول فرعون لقومه إنه ليس بفرعون العظيم السلطان ، العالى العرش والشأن ، إن لم يطيعوه ويؤيدوه ، وهو يقول هنا ، أمرتكم فأطيعوا . . . وليس هـذا فحسب ، انه ليقول : فأطيعوا أمر ربكم ، ثم يحذرهم بعنف ، ويتوعدهم فى سلف وكبرياء (لا يثنِ مستمعاً عن طاعةٍ ثانِ) ! ان هذا لفرعون آخر غير ذلك ، بل انّ صبرى عن هذه الأبيات لغائب ، قال :

فالملكُ أمرٌ وطاعاتٌ تُسابقهُ جنباً لجنبٍ إلى غاياتِ إحسانِ

لم يقل شيئاً ، فهذا هو نظام الملك منذ كان الملوك وكان الناس ، وهذا أبو تمّام فانظر ما ذا يقول فى الواثق بالله :

تُدعى بطاعتك الوحوشُ فترعوى والاسدُ فى عِرّيسها فتدينُ

فأمّا قوله فى البيت الأخير ، لا تتركوا مستحيلا إلى آخره ، فمن الصُّور الضخمة فى ذاتها ، ولكنه لا شىء من جهة الفنّ ، ومن آثار عبقريته فى هـذه القصيدة قوله :

مقالةٌ قد هوتْ مِن عرش قائلها على مناكبِ أبطالٍ وشجعانِ

غير أنك إذا نظرت الى هذا البيت على حدة ، ولم يكن لك علم بالغرض الذى نظم فيه ، كان لك منه صورة أخرى ، فأنت حينئذٍ لا تشك فى أن هذه المقالة كانت حضّاً على الحرب والقتال ، وليست (المناكب) هنا بمانعة . فهى كما تحمل الحجارة للبناء تحمل السيوف الى حومة النزول وساحة الهيجاء ، قال :

مادت لها الأرضُ من ذعرٍ ودان لها ما فى المقطم من صخرٍ وصوّانِ
لو غيرُ فرعونَ ألقاها على ملأٍ فى غير مصر لعُدَّت حُلمَ يقظانِ
لكنَّ فرعونَ إن نادى بها جبلاً لبَّتْ حجارتُهُ فى قبضةِ البانى

فى هذه الأبيات قوّة الشعر ، وبراعة الشاعر ، ولكن قوله (حلم يقظان) فى البيت الثانى مما يتمشى عليه حكم النقد ، وإن خيل اليك أنه توسعة فى اللغة ، انها لصورة شاذة تحاول أن تعطيك معنى الأمانى المستحيلة ووصفها فتفضح نفسها ، وتريك من ذاتها لوناً عجباً من ألوان المحال ، وفى هذه الصورة شىء آخر ، هو أنّ الأحلام على إطلاقها ليست من نوع هذه الأمانى الكاذبة ، فقد ورد فى الأثر ان الرؤيا الصالحة جزءٌ من الوحى ، ولك مما أثبته العلامة ابن خلدون فى مقدمته وعرفه الناس من أمر هذه الأحلام غناء ، وهذا شيخ المعرّة يقول :

إلى اللهِ أشكو أننى كلّ ليلةٍ إذا نِمتُ ، لم أعدم خواطرَ أوهامِ
فان كان شرّاً ، فهو لا بدّ واقعٌ وإن كان خيراً ، فهو أضغاثُ أحلامِ

ودع قوله (خواطر أوهام) فتلك سجية ، وهذا وأبو تمام على ما تعلم من شأنه وعلى أنه جعل للملام ماءً فقال :

لا تَسقنى ماءَ الملامِ ، فاننى صَبٌّ قد استعذبتُ ماء بكائى

لم يجترىء على الأدب فيقول (حلم يقظان) وهو يذكر طلوع الشمس والليل راغم ، قال :

أما إنهُ لولا الخليطُ المودّعُ وَرَبْعٌ خلا منهُ مَصيفٌ ومَربعُ
لرُدَّتْ على أعقابها أريحيَّةٌ من الشّوق ، وَاديها مِنَ الدَّمعِ مترَعُ
لِحقْنا بأخراهمْ ، وقد حَوَّمَ الهوى قُلوباً عهدنا طيرها وهى وُقَّعُ
فرُدَّتْ علينا الشمس ، والليلُ راغمٌ بشمسٍ لهمْ مِنْ جانبِ الخدرِ تطلعُ

نضاضوة ماصبغ الدجنة ، وانطوى لبهجتها أوب الظلام المجزّع
فوالله ما أدرى ، أأحلام نائم ألمّت بنا ، أم كان في الركب (يوشع) ؟

وصدق أبو تمام إذ يقول في غير هذه القصيدة (وأخو الكرى لو لم ينم لم يحلم) وليس يصحّ الاحتجاج بقوله :

أيقظتَ هاجعهم ، وهل يغنيهم سَهرُ النواظر ، والعقولُ نيامُ ؟

وبعد ، فقد أخذ صبري هذه الصورة من قول أبي جعفر الأعمى ، قال :

كم مقلةٍ ذهبتْ في الغيّ مذهبَها بنظرةٍ هي شأنٌ ، أوْ لها شانُ
رَهنٍ بأضغاثِ أحلامٍ ، إذا هجعتْ ورُبما حلمتْ ، والمرء يقظانُ

أما محصل المعنى في البيت الأول والثالث ، فينطوي في قول المعرّي :

وأقسمُ لو غضبتَ على ثبيرٍ لأزمعَ عَنْ محلتِهِ ارتحالا

قال شاعرنا :

وآزرته جماهيرٌ تسيلُ بها بطاحُ وادٍ بماضي القوم ملآنِ

صرف جماهير للضرورة ، وأخذ من قول الأول (وسالت بأعناق المطي الاباطح) وقال :

ويُشبهون إذا طاروا إلى عمل جنّاً تطيرُ بأمر من سليمانِ
برّاً بذي الأمر ، لا خوفاً ولا طمعاً لكنهم خلقوا طُلاباً إتقانِ

يشبه قوم فرعون بالجن ، وليس هذا بالجديد ، فقد تنازع الشعراء هذا التشبيه ، واستفاضت أقوالهم فيه ، فمن ذلك قول عنترة :

لا أبعد الله عن عيني غطارفةً إنساً اذا نزلوا ، جنّاً اذا ركبوا

أما قوله في البيت الثاني (برّاً بذي الأمر ... الى آخره) فيمحو كل المحو تلك الصورة التي صدّر بها قصيدته ، فقد جعل فرعون يغرق في استفزاز القوم وإحراجهم حتى لقد كاد يطردهم من مصر ويحول بينهم وبين ماء النيل ، فماذا جرى حتى جردهم من الخوف والطمع ، ووضعهم في هذه المنزلة من البر والطاعة ؟ لسنا بسبيل الحقائق التاريخية التي اضطهدها الشاعر في قصيدته ، وانما نحن في مقام الابانة عن هذا العيب الفني الكبير ، وفي هذا البيت الهادم لصدر القصيدة تعسفٌ شديدٌ

من حيث الصناعة ، فقد تم المعنى فى الشطر الأول منه ، إذ قال الشاعر (برّاً بذى الأمر الى آخره) فلم يبق من مكان لقوله فى الشطر الثانى (لكنهم) . وثم عيب آخر هو ذكر الاتقان فى البيت وما هو بسبيل منه ، إنه لكما تراه لامطمئن الموضع ، ولا متصل السبب ، قال :

أهرامهم تلك ، حَيَّ الفنَّ مُتخذاً ... من الصُّخور بُرُوجاً فوق كيوانِ
لم يأخذ الليلُ منها والنهارُ سوى ... ما يأخذُ النملُ من أركانِ ثهلانِ
كأنها ، والعوادى فى جوانبها ... صَرعى ، بناءُ شياطينٍ لشيطانِ
فَصغَّرت كلَّ موجودٍ ضخامتها ... وغضَّ بنيانها من كلِّ بنيانِ
كأنما هى ، والأقوامُ خاشعةٌ ... أمامها ، صحفٌ من عالم ثانِ

إنا نحيى الفن مع الرئيس المكرَّم ، ونستأذنه فى ايراد بعض الشواهد على أن ما وصف به بناء الأهرام ، وانها كالبروج المنيفة على كيوان ، ليس من المبالغات المخترعة ، وأن الشعراء لم يغادروا كما يقول عنترة من مُتردَّم فى هذا الباب ، وهذا ما يقوله الشريف الرضى :

بنوا فى يفاعِ المجد ، وهو ممنَّعٌ ... بِنًى طيرُها بين النجومِ وقوعُ

وأشد من هذا إغراقاً قول السموأل فى الأبلق الفرد :

لنا جبلٌ يحتلهُ من نُجيرُهُ ... منيعٌ يردُّ الطرفَ وهو كليلُ
رسا أصلُه تحت الثرى وسما به ... الى النجم فرعٌ لا يُنالُ طويلُ

بل هذا هو الفرزدق يجرى فى هذا المضمار الى أبعد غاية فيقول :

انَّ الذى سمكَ السماء بنى لنا ... بيتاً دعائمهُ أعزُّ وأطولُ

يقول صبرى فى البيت الثانى ان الليل والنهار لا يأخذان من الاهرام إلا ما يأخذ النمل من جوانب ثهلان ، وهو أحد الجبال العظام ، وهذا ولا ريب نمل المتنبى الذى يقول فيه :

أحبك ، أو يقولوا جرَّ نملٌ ... ثبيراً ، وابنُ ابراهيمَ ربعا

فى البيت الثالث صورتان : الأولى سقوط العوادى صرعى فى جوانب الاهرام ، والثانية أنها تشبه بناء الشياطين لبعض اخوانهم الشياطين ، وليس بين الصورتين من صلة ، ومن شأن أداة التشبيه التى توهم وجود هذه الصلة أن تزيلها تنائياً وبعداً . وفى معنى الصورة الاولى يقول البحترى :

رَدَّ الحوادث ملقاة أوائلُها على أواخرها ردعاً وايقافا

وفى معنى الصورة الثانية يقول ابن المعتزّ فى قصر ، وفيه زيادة ظاهرة :

فليس له فيما بَنى الناسُ مُشبِهٌ ولا ما بناهُ الجنُّ فى سالف الدهرِ

بل لقد قال شاعر قديم فى وصف بعض الأبنية ، ولعله الغاية فى هذا الباب :

عالٍ كأنّ الجنّ إذ مردتْ جعلته مِرقاةً الى النسرِ

فأما البيت الرابع فقد قال عبيد بن الأبرص فى معناه :

لا يبلغ البانى ولو رَفعَ الدعائمَ ما بنيْنا

وقال جرير :

ورأيت أبنية خوتْ وتهدّمتْ وبناءُ عرشكَ خالدٌ لم يُهدمِ

يصف شاعرنا ما يأخذ النفوس من الخشوع أمام عظمة الأهرام وجلالها ، حتى لكأنها صحف من عالم آخر غير عالمنا هذا ، وهو وصف بليغ يجمل كل خشوع فى هذا الباب أو سواه مما يقاربه أو يتصل به مجرداً عن هذه الصورة الفخمة ، واليك صورة من هذا الخشوع المجرد لتعرف ما بين الصورتين من التفاوت ، قال الشريف الرضى :

قد مررنا على الديار خُشوعا ورأينا البنى ، فأينَ البانى ؟!

هذا شىء آخر وإن كان المقام واحداً ، وإنك لتلمح نوعاً من الشبه بين بيت صبرى وقول بعضهم :

همْ يهلكون ، ويبقى بعضُ ماصنعوا كأنّ آثارهم خُطّت بأقلامِ

قال :

أين الألى سجّلوا فى الصخر سيرتهم وَصَغّروا كلّ ذى مُلكٍ وسلطانِ ؟

بادوا وبادت على آثارهم دُوَلٌ وأدرجوا طىّ أخبار وأكفانِ

وخلّفوا بعدهم حرباً مخلّدةً فى الكونِ ما بين أحجارٍ وأزمانِ

وزُحزحوا عن بقايا مجدهم وسطا عليهم العلمُ ، ذاك الجاهلُ الجانى

وَيلٌ له ، هتكَ الأستارَ مُقتحماً جلالَ أكرمِ آثارٍ وأعيانِ

للجهل أرجح منه فى جهالته إذا هما وُزِنا يوماً بميزان

فى هذه الأبيات البليغة من العظة الكونية العامة ما يذهب فى النفس البشرية إلى أعمق غور وأبعد قرار ، وفيها من تصوير مجد الفراعنة والتنويه بآثارهم ، وذمّ العلم وهو يتهجم على تلك البقايا الغالية والذخائر الثمينة وينتهك محارمها فى غير تعفّف ولا وفاء ، ما يُريك صورة الفن الشعرى فى تسلطه قضايا التأريخ وأحكامه ، وحقائق الحياة وأوهامها ، انّ لك فى هذه القطعة وحدها لعالما غير محدود من العبر والعظات ، وانك حين تتأمّلها لترى الرئيس صبرى وقد برزت لك فى تاجها الرفيع ، وعلى عرشها الذهبى المكين ، تكتب لدولة الفراعنة ولغيرها من الدول العظيمة كلمة الرثاء فى جبين الدهر ، وتضع فى فمه أنشودة الحياة الكبيرة ، وتحيّة العظمة البالغة ، يردّدها لفرعون وقومه ، ولمصر العظيمة ونيلها ، أمّا العلم — ذاك الجاهل الجانى — فانظر اليه وهو يحتقره ويحرض التأريخ عليه ، ثم انظر فى ناحية أخرى ترَ الجهل البرىء يرفع رأسه ، ويشير إلى خصمه العلم ، والشماتة ملء عينيه وفمه ، إشارة الذى يقول : هل فهمت ؟

وبعد ، فقد بالغ صبرى كثيراً وهو يقول فى البيت الأول عن الفراعنة (وصغّروا كلّ ذى ملك وسلطان) ، وانّ للدول الاسلامية لحقّاً كبيراً فى ذمة التاريخ والأدب ، وخير ما يُفسر به هذا القول أنّه خاصّ بالدول المعاصرة للفراعنة ، أو ما كان منها بعد ذلك الى العصر الاسلامى العظيم ؛ فأمّا ما ورد فى البيت الثانى عن زوال الدولة الفرعونية وما بعدها من الدول تبعاً لتقلّب الدهر وجرياً على سنّة الوجود فما لا يكاد يستوفى كثرة وانتشاراً ، ومنه قول الشريف الرضى :

درجوا كما درج القرونُ وعلمهم أن سوف يُخبر آخرٌ عن أوّلِ

وقال المتنبى :

أين الذى الهرمان من بنيانه ما قومُهُ ، ما يومُهُ ، ما المصرعُ ؟

وهى الدنيا التى يقول فيها المعرّى :

ما نال فرعون بها نعمةً ولا صفا عيشٌ لموسى الكليمْ

وكقول صبرى فى هذا البيت (وأدرجوا طىّ أخبارٍ وأكفانِ) قول المعرى:

جمالَ ذى الأرض كانوا فى الحياة ، وهُمْ بعد المماتِ جمالُ الكتب والسِّيَرِ

وفى معنى ما يقوله عن العلم والجهل يقول أبو العلاء :

إذا عِلمىَ الأشياءَ جَرَّ مَضرَّةً إلىَّ فانَّ الجهلَ أن أطلب العلما

ومما يتصل بهذا الباب قول بهاء الدين العاملى فى مَن يجمع الكتب ولا يستفيد من قراءتها :

لعمرىَ قد أضللتَ الهدايهْ ضلالاً ما له أبداً نهايهْ

فما تُنجى النجاةُ من الضلالهْ ولا يشفى الشفاءُ من الجهالهْ

وبالارشادِ لم يحصل رشادُ وبالتبيانِ ما بانَ السّدادُ

يقول صبرى فى البيت الأخير من هذه القطعة :

وَيْلٌ له هَتك الأستارَ مقتحماً جلال أكرم آثارٍ وأعيانِ

وليس هذا بصحيح على إطلاقه فما كانت ذخائر الفراعنة وأجسادهم فى مثل هذه المنزلة التى تفوق كلّ منزلة أخرى ، ولسنا ننكر مع كلّ هذا أن قصيدة (فرعون وقومه) ستبقى من الآثار البديعة والذخائر الغالية فى عالم الشعر والأدب .

رثاء أمين فكرى باشا

وهبتُك يا دهرُ مَن تطلبُ أبعدَ أمينٍ أخٌ يُصحَبُ !

طَويتُ المودّةَ فى شخصه فأىّ ودادٍ امرىء أخطبُ ؟

وأىّ بديلٍ لهُ أرتضى وَأىّ شمائلهِ أندبُ ؟

أمينُ انتدى فى النوى ، وارعنى فبينى وبينك ما يوجبُ

أتذكرُ إذ أنتَ منى النّياط من القلب ، أو أنت لى أقربُ ؟

وإذْ نحنُ هذا لهذا أخٌ وهذا لذا ابنٌ ، وهذا أبُ ؟

ومَن قال عنا من الناظرين نديما جُذيمة ، لا يكذبُ

حسبتُ بأنّك لى خالدٌ فكان الذى لم أكن أحسبُ

ليس فى هذا الشعر من دلائل الفحولة وشواهد العبقرية ما يأخذ النفس ، أو يزيد شيئاً جديداً فى الفن : فأنت ترى صبرى فى هذه القطعة يرسل القول على هِينةٍ وكأنه يقصُّ عليك حديثاً أو يطلعك على ذات نفسه فى صورة مردّدة من قديم

الرثاء وجديده، وأريد هذا الجديد الذى تراه ممسوخاً وتمر به مهدماً لايعنيك منه سوى أن تجاوزه وأنت فى عافية من بلائه . يقول صبرى فى مطلع قصيدته (وهبتك يا دهرُ من تطلب) فهل لهذا من معنى فى مقام الرثاء ؟ وهل ترى بين هذه الصورة الجامدة وبين ما بعدها من الصور الباكية التى تتمثل لك فى هذه القطعة من تماون أو التئام ؟ يهب صبرى للموت من يحب فى هدوء شامل وسخاء عميم وهذا الشريف الرضى يقول فى رثاء أمه :

لو كان يدفعُ ذا الحمامُ بقوةٍ لتكدّست عُصَبٌ وراءَ لوائى
بمدرَّبينَ على القراعِ تفيّأوا ظلَّ الرِّماحِ لكلِّ يوم لقاء

وانظر الى المتنبي وهو يتحدث بأخذ الثأر من الحمى فى موت أمه فيقول :

هبينى أخذت الثأر فيك من العدى فكيف بأخذ الثأر فيك من الحمى!

ولعلّ الأصل فى هذه الهبة المعدول بها عن وجهها قول أبى تمام :

قصدتْ نحوه المنيّةُ حتى وَهبتْ حُسنَ وَجهِهِ للترابِ

فأما قوله فى البيت الثانى (طويت المودّة فى شخصه) فشبيه بقول البحترى فى وصيف التركى :

فيالك من حزمٍ وعزمٍ طواهما جَديدُ الردى تحت الصفا والصفائحِ

ومنه قول الشريف الرضى يخاطب القبر :

لم يواروا فيك ميّتاً ، إنما أفرغوا فيك ذنوباً من نوالِ

وقوله وهو أفخم :

اليومَ أغمدتُ المهنّدَ فى الثرى ودفنتُ هضبَ مَتالعٍ ويَلملمِ

وليس لقوله فى الشطر الثانى من البيت (فأىّ وداد امرىء أخطب ؟) أىّ جمال فنىّ بل هو يكاد يعدّ اليوم من كلام العامة وأشباههم ، ورحم الله الشريف الرضى إذ يقول :

فى كلِّ يومٍ مودّاتٌ مطلقةٌ قد كان زوّجنيها الدهرُ مغرورا

يقول صبرى فى البيت الثالث (وأىّ شمائله أندب) ويقول الشريف الرضى :

أبكى نداهُ العريضَ أم بشرَهُ اللا معَ للمعتفين ، أم وَدَعَهْ ؟

ويقول صبرى فى البيت الرابع (أمين انشد الى آخره) وهو معنى من قول الشريف الرضى فى رثاء بعض أصدقائه :

ولقد حفظتُ له ، فأين حفاظهُ ؟ ولقد وفيتُ له ، فأينَ وفاؤه ؟

فأما قوله :

أتذكر إذ أنتَ منى النياط من القلب أو أنتَ لى أقربُ ؟

فمن قول الشريف الرضى فى رثاء :

أعزُّ على عينى من العينِ موضعاً وألطفُ فى قلبى من القلبِ موقعا

وقوله فى رثاء آخر :

يا ثانياً للنفس بل يا ثالث العينينِ عزّا

فأما قول الرئيس فى البيت السابع إنه كان وصاحبه كنديمى جذيمة فأخوذ من قول الشاعر :

وكنا كندمانىْ جُذيمة حقبةً من الدهر حتى قيل لن يتصدّعا

قال الرئيس :

حسبتُ بأنكَ لى خالدٌ فكان الذى لم أكن أحسبُ

يقال حسبتُه وحسبتُ أنه ، فلا محل للباء فى قوله (بأنك)، وغريب أن يظن صبرى أو يحسب أن صديقه بنجوةٍ من الموت فلعله أراد أن يقول كما قال الأول :

لقد كنتُ أرجو أن أملأَكَ حِقبةً فحال قضاء الله دون رجائيا

أو لعله نظر الى قول الشريف الرضى فى رثاء الملك قوام الدين :

وما كنت أدرى أن فوقك آمراً من الدهر يدعو بغتة فتطيع

وأعجب من هذا قول المتنبى :

ألا انما كانت وفاةُ محمدٍ دليلا على أن ليس لله غالبُ

قال صبرى :

أفى ذا الشبابِ وهذا الاهابِ يموت الفتى الطاهرُ الطيّبُ ؟

ويُودى الذكاء ، ويقضى الوفاء وتردى الفضيلة أو تعطبُ ؟

عجيبٌ من الموت أفعاله وعتبي على فعله أعجبُ
بذا حكم الله في خلقه لكل امرىء أجلٌ يُكتبُ

يتفجع الرئيس لموت الفقيد في شبابه ، ويبكي فيه الذكاء والوفاء والفضيلة ، وما هي بشيء آخر فيكون لنا من ذكرها صورة جديدة قائمة بذاتها ، فأما في المعنى الأول فيقول أبو تمام :

إنّ الفجيعة بالرياض نواضراً لأشدُّ منها بالرياض ذوابلا

ويقول الشريف الرضي :

طويتك طيّ البُرْدِ لم يُنضَ من بِلى وقد يُغمدُ المطرورُ وهو صنيعُ

ولسنا نتكلف ايراد الشواهد على كثرة ما قيل في الباب الثاني ، فهو كل مايقال في الرثاء ، فأما قوله في البيت الثالث إنه يعجب من (أفعال) الموت ، ويرى أن عتبه على (فعله) أعجب ، فأنت أذكى من أن ندلك على ما في (أفعاله وفعله) من العجب ، والمعنى مأخوذ من قول الغطمش الضبيّ :

أخلاّيَ لو غير الحِمام أصابكم عتبتُ ، ولكن ما على الموت مَعتبُ
بذا حكم اللهُ في خلقه لكل امرءٍ أجلٌ يُكتبُ

صدق صبري وصدق الشيخ أبو العتاهية إذ يقول (وانّ لكل ذي أجلٍ كتابا) وإذ يقول :

كلُّ نفسٍ ستوافي سعيها ولها ميقاتُ يومٍ قد وجبْ

ولم تضنّ على الخنساء بالتحية وقد قالت :

أبكي فتى الحيّ نالته منيّته وكلُّ نفسٍ الى وقتٍ ومقدارِ

إرعوى الرئيس بعد طول التفجع الى حكم الله وسنة الحياة فأشبه مسلم بن الوليد إذ يقول في يزيد بن مزيد :

أحقاً انه أودى يزيدُ ؟ تأمّل أيها الناعي المشيدُ
أحامي المجد والاسلام أودى فما للأرض ويحك لا تميدُ ؟
أما والله ما تنفكُّ عيني عليك بدمعها أبدا تجودُ

أبعد يزيد تحتزنُ البواكى دموعاً ، أو تصان لها خدودُ ؟
لتبكك قبة الاسلام لما وهت أطنابها ، وهوى العمودُ
فإن يهلك يزيدُ ، فكلُّ حيٍّ فريسٌ للمنيةِ ، أو طريدُ

قال صبري :

وَجدتُ الحياة طريق المات وكلٌّ الى حتفهِ يسربُ
ويعثرُ فيه الفتى بالشباب ويدلفُ بالعلة الأشيبُ

فأما ان الحياة طريق المات ، فقد قال السموأل :

ميتاً خُلقتُ ، ولم أكن من قبلها شيئاً يموتُ ، فتُّ حين حييتُ

وقال الشريف الرضى :

بقاء الفتى مستأنفٌ من فنائهِ وما الحيُّ الا كالمغيَّب فى الرمسِ

وأشد من هذا ابانة عن المعنى قول البحترى :

أجارتنا من يجتمع يتفرّق ومن يك رهناً للحوادث يغلقِ

وأوضح منه قول المعرّى :

إن شئت أن تكفى الحمام ، فلاتمش انّ الحياة الى المنيّة سُلَّمُ

بل نحن ندع هذا السلم لنلتقى وشاعرنا الكبير فى طريق واحد ، قال المعرّى يخاطب الدنيا :

وجدناك الطريق الى المنايا وقد طال المدى ، فتى نجوزُ ؟

وأما موت الشباب ، وبقاء الشيب فكثير ما قيل فيه ومنه :

يرجو الأبُ الطفلَ الصغيرَ وطالما هلك الوليدُ ، وعاش فينا الوالدُ

وقال بعضهم :

كم عُوجلت غادةٌ كعابٌ وغودرتْ أمُّها العجوزُ

والأصل فى هذا الباب قول زهير بن أبى سلمى فى معلقته :

رأيتُ المنايا خبط عشواء من تُصب تُمِتْه ، ومن تخطئ يعمَّرْ فيهرمِ

قال صبرى :

ألمّا تكامل نورُ الأمين وتاه به الشرق والمغربُ

ووفى المكارمَ ما أمّلت وأعطى الفضائل ما تطلبُ
ودانَ له أملٌ فى الحيـــاة وتمّ له فى العلى مأربُ
طواه الردى علماً فانطوى به أملٌ مقبلٌ نرقبُ ؟

عاد الشاعر الى التفجع بعد ذلك الارعواء ، وفى هذه القطعة تقليد ناطق لقول أبى تمام فى أحمد بن هارون القرشى :

أفلسّا تسَرْبلَ المجدَ واجتا بَ من الحمد أيّما مُجتابِ
وتراءته أعينُ النـــاظريهِ قمراً باهراً ورئبـالَ غابِ
وعلى عارضيهِ ماءُ الندى الجا ري وماءُ الحجى وماءُ الشبابِ
أرسلت نحوه المنيّةُ عيناً قطعت منه أوْثقَ الأسبابِ ؟

قال صبرى :

فيا نائيـــاً والهوى ما نأى وذكراه فى البالِ لا تعزبُ
هنيئـــاً لدارٍ تيمّمتها لقد زارها المَلكُ الأطيَبُ
وجاورها كوثرٌ من خِـــلالكَ حُلوٌ مع الخلد مُستعذبُ
تنعّمْتَ فيهـــا ، وخلّيتنى لدى مـــنزلٍ بَرْقُهُ خلّبُ
ووادُ الصـــديق به حُوّلٌ وقلبُ الصـديقِ به قُلّبُ
وصعبٌ على الحرّ فيه المقام ولكنّ هجـرانه أصعبُ

نأى أمين فكرى ، وما نأى هواه عن صبرى ولا عزبت ذكراه عن باله ولوشئنا أن نسوق اليك أسراباً متلاحقة من أشباه هذه الصورة ونظائرها لفعلنا ، فحسبك منها قول أبى تمّام :

لها منزلٌ تحت الثرى وعهدتها لها منزلٌ بين الجوانحِ والقلبِ

وقوله (قالوا وشوقك لم يظعن ولم يبن) وقول الشريف الرضى :

شوقٌ أقام وأنت غير مقيمةٍ والشوق بالكلِف المعنّى أعلقُ

فأما قول صبرى (هنيئاً لدارٍ تيمّمتها) فلا طائل تحته وهو معنىً من قول أبى تمام :

بات الثرى بأخى جذلانَ مبتهجاً وَبِتُّ يحكمُ فى أجفانىَ السُّهُدُ

وانك لنى غِنًى عن إيذانك بما فى البيت الثالث من الاضطراب وشدّة القلق ، وأما قوله (تنعّمتَ فيها وخلّفتنى ، إلى آخر البيت) فمن الصوَر التى تناولها الشريف الرضى فى قوله :

يفوز بالراحة الفقيدُ وللفتى قدرِ طولُ العناء والتعبِ

نتخطّى البيت الخامس الى ما بعده ، وهو الذى يقول صبرى فيه إن الحياة فى هذه الدنيا ثقيلة على الحرّ ، ولكنّ الموت عليه أثقل ، وهذا وصفٌ عامٌّ يتمشّى على الناس كافّة ، فلا معنى هنا للتخصيص والحصر ، (تعبٌ كل الحياة ...) . قال عمران بن حطّان فى الدنيا :

أرى أشقياء الناسِ لا يسأمونها على أنهم فيها عُراةٌ وَجُوَّعُ !

لا ، فتلك قضيّة لا تُؤخذ إلاّ من فم المعرّى ، ومنه أخذ صبرى ، قال :

وجدنا أذى الدنيا لذيذاً كأنما جَنَى النحلِ أصنافُ الشقاءِ الذى نجنى

فما رغبت فى الموت كُدْرٌ مسيرها الى الوِرْدِ خمسٌ ثم يشربن من أجنِ

ولا قلقاتُ الليلِ باتت كأنها من الأينِ والادلاج بعض القنا اللدنِ

وخوف الردى آوَى الى الكهف أهله وعلم نوحاً وابنه عملَ السُّفنِ

قال صبرى :

ويا تربةَ حَلَّ فيها الأمينُ لأنت الفراديسُ أو أخصبُ

حُبِيتِ على رحماتِ الرحيم وجادك رضوانهُ الصَّيِّبُ

ولا زالت السحبُ منهلةً وأنت لاذيالها مَسْحَبُ

وَرَوَّتك منى دموعٌ تسيلُ تخامرها مُهَجٌ تسكبُ

ليس فى تشبيه القبر بالروضة شىء جديد ، فالمرأى حافلة بهذا ومنه قول الشريف الرضىّ :

وان ضراحكم فى الصعيد لتكسو الخبيثَ من الأرض طيبا

وقوله فى قبر ابن الطائع لله ، وفيه صورة أخرى ولونٌ مزيدٌ :

منهلُ الجنباتِ تضحك أرضُه فكأنّ بين فروجها الجوزاءُ

ويقول أبو تمام :

مضى طاهرَ الأثواب ، لم تبقَ روضةٌ غداةَ ثوى الا اشتهت أنها قبرُ

والغاية فى هذا الباب قول المتنبي :

وما ريحُ الرياض لها ، ولكن كساها دفنُهم فى الأرض طِيبا

يدعو صبرى لتربة الأمين بسقيا السحب ، فمن يصدق أن هذا من قوله ؟ وماذا تصنع السحب بالقبور ؟ يالله من تقليد جاهلى لا يكاد يرحم الأدب ، ولا أدرى كيف تقيد الشريف الرضى فى القرن الخامس من التأريخ الهجرى بهذا المذهب فاكثر من طلب السقيا للقبور ، ومنه قوله :

سقاكَ وإن كنت فى شاغلٍ عن الرىّ دانى الندى صائبُ

وقوله :

أخلاىَ لا زال جمُّ البروق أجشُّ الرُّعودِ يطيعُ الجنوبا

يَشُقُّ المزادَ على رُبكم ويَمرِى على كلِّ قبرٍ ذنوبا

وقوله :

أرسَى النسيمُ بواديكم ، ولا برحت حَوَامِلُ المزن فى أجداثكم تضعُ

بقى أن نحكم حكما عاماً على هذه القصيدة فنقول فى غير مداراة ولا مصانعة إنها ليست من الشعر المأثور ، وانها قصيرة العمر قريبة مدى البقاء فى عالم الأدب الحىّ ، ومن عيوبها أنها لا تعطى القارىء صورةً واضحة عن الفقيد ، فهى مأتم يفزعك ما تسمع فيه من شدة الصخب والضجيج ، ولكنك لا تعرف عن الميت الا انه صديق عزيز ، وانه كان ذكياً وفيّاً ، تكامل نوره ، فتاه به الشرق والغرب ، وفّى المكارم حقها وأعطى الفضائل طلبتها ، كان علماً فانطوى ، وانطوى فيه أمل : هذا هو أمين فكرى فى قصيدة الرئيس . وقد يُردّ كل ما عزى اليه من الفضائل فى ظلمة هذا الغموض الى المبالغات الشعرية فلا يبقى الا انه صديق عزيز وأخ للشاعر كريم ، وما أشجى ما يقول الشريف الرضى فى فقد الاخوان والاصدقاء :

أحبابىَ الأدنين كم ألقى بكم داءٌ يمِضُّ فلا أُداوِى الدّاءَ

إلا يكن جسدى اصيب ، فانى فرقتُهُ ، فدفنتهُ أعضاءَ !

مذنب هالى

مزع العالم كله لما كان يتوقّع من جسام الحوادث حين زعم المهوّلون المزاعم عن هذا المذنّب العظيم فلم يكن عجباً أن يتناول صبرى باشا هذا الحادث الكبير فيخلّد ذكراه فى قصيدةٍ من شعره الجزل . وانّا لبسبيل هذه القصيدة التى نُرينا صبرى الشاعر الكبير ، وصبرى العالم الفيلسوف ، وصبرى الزعيم الداعية ، وصبرى الحانق المتغيّظ ، وانك لترى صبرى الأخير فى هذه القصيدة وقد اتّقدت عيناه ناراً ، وتدفّق الغضب من فمه متدافعاً زخاراً ، فتذكر به نوحاً وقوله : (ربِّ لا تذَرْ على الأرضِ مِنَ الكافرينَ ديّاراً ، إنكَ إنْ تذرْهم يُضلّوا عِبادك ولا يلدوا إلاّ فاجراً كفّاراً) .

يغضب صبرى فى هذه القصيدة غضبته الكبرى ، لا متجنّياً على العالم وناسه ، ويستنزل الموت والعذاب على هذه الأرض لا لقسوةٍ فى طبعه ، ولا لشراسةٍ فى فى احساسه ، ولكنّه رأى الأمم تتّخذ من أهوائها الظالمة وشهواتها الوحشيّة الدنيئه أوثاناً تعبدها ، وأصناماً تعكف عليها ، ووجد مظالم البشر ومناكرهم تُثقل ظهر الأرض وتملأ جوانب العالم ، فلا حنان ولا حُبّ ولا نور ولا جمال ، وهذا ما يصفه فى قصيدته ، قال :

غاض ماءُ الحياءِ مِن كلِّ وجهٍ ... فغدا كالحَ الجوانبِ قفرا
وتَفشّى العقوقُ فى الناس حتى ... كاد رَدُّ السّلامِ يُحسَبُ برّا !
أوْجُهٌ مِثلَ ما نثرتَ على الأجْـ ... ـداثِ وَرْداً إن هُنّ أبدينَ بشرا
وَشِفاهٌ يَقُلْنَ أهلاً ولو أدّيـ ... ـنَ ما فى الحشا لَما قُلْنَ خيرا
عُمرَكَ اللهُ هل سلامُ ودادٍ ... ذاكَ ، أم حاوَلَ المسلّمُ أمرا ؟
عَميتْ عن طريقها أم تعامتْ ... أممٌ فى مَفاوزِ الجهلِ حيرى ؟
غرّها سعدُها ومِن عادةِ السّعـ ... ـدِ يُؤاتي يوماً ويخذل دهرا
فتجنّتْ على الشعـــوب وشنّتْ ... غارةً فى البلاد من بعد اخرى
نَسِيَتْ فى الصُّعودِ يومَ التّدلّى ... والتّدلّى بصاعد الجَدّ مُغرَى
تَعِبَ الفيلسوفُ فى الناسِ عصراً ... وتولّى السّرائرَ الدينُ عصرا

والورى طارد ازاء طريد وَعُقابٌ يُمسى يطاردُ صقرا
عِبَرٌ كلها الليالى ، ولكنْ أين مَنْ يفتح الكتاب ويقرا ؟
أنت نعم النذيرُ يا نجم هالى زلزل السَّهْلَ والرواسىَ ذعرا
ظنَّ قومٌ فيك الظنون وقالوا آيةٌ أرسلت الى الأرض كُبرى
إن يكن فى يمينك الموت فاقذِفْ هُ شُواظاً على الخلائق طُرّا
أغداً تستوى الانوفُ فلا يَنْـ ظُرُ قومٌ قوماً على الأرض شزرا ؟
أغداً يصبحُ الصّراعُ عناقاً فى الهيولى ، ويصبحُ العبدُ حرّا ؟
إن يكن كل ما يقولون ، فاصدع بالذى قد أمرت حييت عشرا !

ظهر صبرى فى مواضع كثيرة من هذه القصيدة التى بقيت منها أبيات أخر لم نتناولها ظهوراً واضح الأثر ، ناطق الدلالة . ولسنا نزعم أنه قضى حاجة الفن كل القضاء ، وأتى من سعة التصوير ودقة الوصف بكل ما يتطلب الأديب ، فقد كف نفسه عن كثير من أطماعها الفنية ، وقنع بالنزر اليسير من تمثيل آلام الانسانية وآمالها ، فلولا ما اشتملت عليه القصيدة من جودة النظم ، ولولا ما وعت من الحكمة وبراعة الوصف فى بعض الاشراق منها ، لفقدت جمالها ، ووقعت فى مكان آخر غير مكانها ، وقد يكون هذا حكمها لو تم بنى [illegible] القصيدة المحمدة فقد عرفنا ان صبرى يعيا بالمطولات ولا يستطيعها ، وليس لما أكره عليه الطبع من جمال .

لم تخل هذه القصيدة من عيوب فنية ، يتمثل بعضها فى الرجوع الى الشعر القديم والاستعانة به على تأدية بعض الأغراض ، ويقوم بعضها الآخر فى اغفال ما لا بد منه لاصابة الوجه واقامة المذهب . فمن الباب الأول قوله :

غاض ماء الحياء من كُلّ وجهٍ فغدا كالح الجوانبِ قفرا

وقد تداول الشعراء ماء الحياة فى حالتيه فهو يفيض على ألسنتهم تارة ويغيض تارة أخرى ، وكذلك هم قد تناولوا خصب الوجوه وجدبها ، فأطالوا فى ذلك وأكثروا . فما قالوا فى ماء الحياة :

كثيرٌ حياءُ الوجهِ يقطر ماؤهُ على انهُ من بأسه النارُ تَلفحُ !

ومن قولهم فى الوجوه الخصيبة وهو للخزيمى :

وما الخصبُ للاضياف أن يكثر القرى ولكنما وجهُ الكريم خصيبُ

وقال ابن أبي الهيدام في نقيض هذا المعنى :

لي صديقٌ هو عندي عَوزٌ من سدادٍ ، لا سدادٌ من عَوَزْ
وجهُه يُذكرني دارَ البلى كلما أقبل نحوي وضَمَزْ

ومن هذا قول الآخر :

لا يعملُ المِبْرَدُ في وجهِهِ وَوَجْهُهُ يَعمَلُ في المِبْرَدِ !

ومن قول صبري في باب الرجوع الى القديم :

وتفشّى العقوق في الناس حتى كاد رَدُّ السلام يُحسبُ برّا !

فان ذلك قول ابن عمار :

تناهيتمو في برنا لو سمحتمو بوجهٍ صديقٍ في اللقاء وسيمِ

ويقول صبري .

وَشِفاهٌ يقلنَ أهلاً ولو أدّيـ . . . نَ ما في الحشا لما قلنَ خيرا !

وهو من قبيل قولهم :

يقولون لي أهلاً وسهلاً ومرحباً ولو صفروا بي ساعةً قتلوني !

والباء من قوله (خيراً) في هذا البيت من عيوب القافية ، وقد تكرّر هذا العيب في قوله :

عَيِيتَ عن طريقها ، أم تعامَتْ امَمٌ في مفاوزِ الجهل حيرى ؟

وقوله (مفاوز الجهل) في هذا البيت لا يخلو من مطعن ، ففي اللغة على وجهٍ راجح ان المفازة صفةٌ عكسيّة للفلاة المهلكة يُراد بها التفاؤل بالنجاة ، وليس المقام يحتمل هذا ، ومَرَدُّ الأمر الى فقه اللغة وأدبها ، ومن التعسُّف اللغوي قوله :

غرّها سعدُها ، ومن عادة السَّعْـ ـدِ يؤاتي يوماً ويخذل دهرا

يقال من عادته أن يفعل كذا ، فلا وجه لإسقاط (أن) . قال الشاعر :

أعادَتْها أن لا يعاد مريضُها وَسيرتُها أن لا يُفكّ أسيرُها !!

والمواتاة لُغةً الموافقة ، فما هي للخذلان بضدّ ، والمعنى في هذا البيت وقوله :

نسيَتْ في الصعود يوم التدلي والتدلي بصاعد الحدّ مُغرَى

مأخوذ من قول الشاعر :

ما طار طيرٌ وارتفعْ إلاَّ كما طارَ وَقعْ

ومن قول الآخر :

لا يأمنُ قويٌّ نقضَ مِرَّتِهِ إنى أرى الدهرَ ذا نقضٍ وإمرارِ

ومن المخلل الوصفى قوله (والورى طارد إزاء طريد) فالوجه أن يقال وراء لتستقيم الصورة ، وفى هذا المعنى يقول الشريف الرضى :

والناسُ أُسْدٌ تحامِى عن فرائسها إمَّا عقرْتَ ، وإما كنتَ معقورا

وللمعرّى فى الناس :

هُمُ السِّباعُ إذا عَنَّتْ فرائسُها فإنْ دعوتَ لخيرٍ حوَّلوا حُمُرَا !

وله :

إذا أنتَ لم تهرب من الأنسِ فاعترفْ بِطُلْسٍ تعاوَى ، أو ثعالبَ تَضبحُ

وقال :

والعيشُ حربٌ ، لم يَضعْ أوزارَها إلاَّ الحِمامُ ، وكلُّنا أوزارُ

فأما قول صبرى :

عِبَرٌ كلُّها الحياةُ ، ولكن أينَ من يَفتحُ الكتابَ ويقرا ؟

فمن الصور القديمة التى يراها الأديب أكداساً متراكمة فى أفنية المدرسة الشعرية الأولى ، قال عدىّ بن زيد :

كفى زاجراً للمرء أيامُ دهره تروحُ عليه بالعظاتِ وتغتدى

وقال المعرى :

إفهمْ عن الأيامِ ، فهى نواطقٌ ما زال يضربُ صَرْفُها الأمثالا

وقال :

والدَّهرُ شاعرُ آفاتٍ يفوهُ بها للنَّاسِ ، يَفكرُ أحياناً ويرتجلُ

ومن قوله فى هذا الباب :

أوَ ما قرأتَ سِجلَّ دهرِكَ ناطقاً بالهُلْكِ ، يُشكلُ بالخطوبِ ويُنقطُ ؟

وقال أبو العتاهية :

إنّ الزّمانَ لشاعرٌ وخطيبُ

قال صبرى :

إن يكن فى يمينكَ الموتُ فاقذِفْـ ـهُ شُواظاً على الخلائق طُـرًّا
أغداً تستوى الانوفُ فلا بدْ ظرُ قومٌ قوماً على الأرض شزرًا ؟

كان الخطر المتوقع من ذنب نجم هالى ، فلا معنى لذكر يمينه أو شماله ، وليس فى البيت الثانى أكثر ممّا قيل قديماً :

ولقد مررتُ على القبور فما تمـيّزتُ بين العبـدِ والمولى

ومثله قول المعرّى :

والموتُ يسلبُ ما فى الأنف من شممٍ تحت التراب ، وما فى الخدّ من صعرِ

وقال الشريف الرضىّ فى الموتى :

نزلوا بقارعةٍ تشابَهَ عندها ذُلُّ العبيدِ ، وعِزّةُ الأحرارِ

ومن الصور الرائعة فى قول صبرى فى هذه القصيدة :

تعبَ الفيلسوفُ فى الناس عصراً وتولى السرائرَ الدينُ عصرا

ولكنك اذا عرضت هـذه القضية الضخمـة على عقلك وأنت تنظر الى تأريخ البشر وأديانهم وفلسفاتهم لم تجد لها من أثر أمام الحقيقة ، فان الانسـان الأول لم يهبط الى هذه الأرض الاّ ورسالة الدين فى عنقـه ، فالولاية العـامة إذاً على هؤلاء البشر لم تكن لشىء آخر سوى الدين فى أى عصر من العصور ، ولا يطعن فى ذلك ماكان من تلك الفترات التى تخللت مجىء الرسل والانبيـاء عليهم السلام ، ولست بمنكر عمل الفلسفة وأثر الفلاسفة فى حياة الأمم ولكنى أنكر تلك الصورة المحرفة التى توهم التعاقب فى الولاية بين الفلسفة والدين ، وهو ما لا وجود له . وأبدع ما فى هذه القصيدة قوله :

أوْجُهٌ مثلما نقرت على الأجـ . . ـداثِ ورداً ، إن هنّ أبدين بشرا !!

وقوله :

أغداً يصبحُ الصّراعُ عِناقاً فى الهيولى ، ويصبحُ العبدُ حُرّا ؟!

وأنا أرجو أن تكون الصورة التشبيهية فى البيت الأول من مبتكرات صبرى .

ولعل قوله فى البيت الثانى (ويصبح العبد حراً) مما يدخل فى باب الملحقات التى لا صلة بينها وبين ما هى اليه من الكلام ، وقد اندمج هذا المعنى فى قوله (أغداً تستوى الأنوف، الى آخره) فلم يبق له من محل ، وقد كان من حق هذا البيت البديع الذى يعدّ من الشعر العلمى ، وهو قليل فى آثارنا الشعرية ، أن يأخذ مجراه على هذا النّسق الى النهاية ، ولكنّ عين الكمال كما يقول الأقدمون أصابت شاعرنا فأتمّه بهذه الرقعة التى حجبت وراءها جمالاً كثيراً ، وانك حين تتخيّل هذا الصراع البشرى العنيف وقد استحال بعد الموت وآثاره عناقاً وضماً والتزاماً بين بقايا البشرية وأنقاضها ، أو بين مادتها المنحلة وجوهرها الذائب المتناثر ، إنّك حين تتخيل هذه الصورة الرائعة لتريد أن تلتهمها كاملة ، وانك لتراها ناقصة فى البيت ، والكمال لله وحده ، فاعذر صبرى ، وانظر ما يقول المعرى فى المرتبة الأولى من مراتب هذا العناق وهو يصف المنايا وأحداثها :

فكم قارنٌ من رأسِ برجلٍ وكم ألحقنَ مِنْ قدمٍ براسِ !

قصيدته فى تهنئة السلطان حسين

ليس لهذه القصيدة من شأن يذكر ، ولعل هذا لأنها نظمت لضرورة سياسية ، ونحن نمر بهذه القصيدة لماماً . قال فى مطلعها :

اليوم آنَ لشاكرٍ أن يجهرا بالشكر ، مرتفعَ العقيرة فى الورى

ومنها :

هذا ابنُ اسماعيلَ : نجمٌ طالعٌ لهداية السارى ، وفيٌّ على السُّرى

وقد ختمها بقوله :

حالٌ اذا نظر الأديب جمالها شكر الاله ، وحقُّه أن يشكرا

فى البيت الأول اضطراب ظاهر ، وفى الثانى معنى مكرر من أشعار المتقدمين ، ومنه قول كعب الأشعرى فى آل الملهب :

نجومٌ يُهتدى بهمو اذا ما أخو الغمرات فى الظلماء حارا

فأما البيت الثالث فشبيه بقول البهاء زهير فى الأمير مجدالدين محمد بن اسماعيل:

وغفرتُ ذنبَ الدهر يومَ لقائه وشكرتُه ، ويحقّ لى أن أشكرا

وأحسن ما فى هذه القصيدة قوله :

والنيل لم يبرح على العهد الذى أخذته قبلُ عليه ناضرةُ القرى

منهاديًا بين البقاع ، مناجيًا أرجاءها بالخصب يكتنفُ الثرى

لو أنّ الطلول المنازل تنطق

هذه هى القصيدة الرنانة التى احتلت مكانًا رفيعًا ومنزلةً سامية فى مملكة الشعر وكانت لصبرى آية ناطقة وحجة ناهضة على أنه من مهرة الشعراء وجهابذتهم ، وهى محلاة بالكثير من بدائع الفن ومحاسنه . وقد انبسطت فيها نفسه وتدفق طبعه ، على غير عادته فى المطولات فظهرت فيها قوة الباعث ونشاط الروح الشعرىّ وجاءت من المأثورات التى تستطيع الاحتفاظ بجدتها وحرارتها مدة طويلة . وفى معتقدنا أنّ هذا النشاط المتجدد فى القصيدة مردود الى تجدد الأغراض وترادفها فقد اشتملت على سبعة وثلاثين بيتًا : منها خمسة فى ذكر الاطلال والمنازل ومناجاة الأحباب والشكوى من الفراق ، وأربعة فى عيد الفداء وسدة الملك وما ينتظم فى هذا السلك ، واثنا عشر بيتًا فى مدح الامير وذكر الشورى ونحو ذلك ، وثلاثة عشر فى فاجعة دنشواى وآثارها ، وثلاثة وهى ختام القصيدة فى مدح العباس والدعاء له ـ هذا ما نعتقده ولعلنا فيه على صواب .

قال صبرى فى هذه القصيدة :

لو أنّ اطلال المنازل تنطقُ ما ارتدّ حرّانَ الجوانح شيقُ

لا ننكر على صبرى ذكر الاطلال إنكار من يرى أن هذا يعد من مهجورات الزمن القديم والحياة الاولى فان للشاعر أن يتناول كل شىء ، وليست اطلال الديار وذكرى الأحباب مما يدخل فى ذلك الباب فما تزال يد الزمن تعفو الآثار وتبلى الجديد .

لا ننكر هذا على صبرى ولا سواه من شعراء عصرنا ، بل نحن نرى أن يكون وصف الطلل من الصور الفنية التى ينبغى لكبار الشعراء أن يتناولوها ، ويتباروا فيها ، ولكن لا على تلك الطريقة القديمة التى لا تتعدّى ذكر القدم ووصف البلى

ذلك الوصف الجافّ الذى لا يفيد من الوجهة الفنية ولا يغنى ، وهـذا موضع العيب فى قصيدة صبرى ، وثمّ موضعٌ آخر مُقدَّمٌ على هذا ، وهو فساد الذوق وسوء الاستعمال ، فانّ كل مقام لا يحتمل ولا يقبل إلاّ ما يناسبه من الصور والألوان ، وصبرى فى هذه القصيدة بسبيل التهنئة وفى مقامها ، فليس من أدب الفن ونظامه أن يبدأها بتلك الصورة المحزنة ، ولا أن يلطخ وجهها بمثـل ذلك اللون القاتم ، واليك أمثلة من الشعر القديم تريك تقليد صبرى فى ذكر الاطلال واضحاً ، وتدلك على قصوره وضعف قوّته حتى فى هذا التقليد . قال امرؤ القيس :

قِفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ وعرفانِ ورسمٍ عفت آياته مُنذُ أزمانِ
أتتْ حِججٌ بعدى عليها فأصبحت كخطّ زبورٍ فى مصاحف رهبانِ
ذكرتُ بها الحىَّ الجميعَ فهيَّجتْ عقابيلَ سُقمٍ من ضميرٍ، وأشجانِ
فسحت دموعى فى الرداء كأنها كُلَى من شَعيبٍ ذاتُ سَحٍّ وتهتانِ

وصف امرؤ القيس الأطلال فى هذه الأبيات فشبّـهها فى دثورها وخفاء معالمها بأساطير الكتب القديمة ، وذكر ما أصابه وهو يقف فيها فيراها مُقفرة من ساكنيها ، وهو إذ تغلبه الذكرى على صبره فى هذا الموقف فيبكى ، يصوّر لك كيف بكى ، ويصف دموعه وهى تجرى سحّاً على ردائه ، فيقول لها إنها كانت كالماء يتدفق من الرقعة الواهية فى السِّقاء البالى ، وهذه صورة تشبيهيّة أخرى ، لها شأنها فى باب التصوير الفنى ولها مكانها ، قال زهير بن سلمى :

أمِنْ أمِّ أوْفَى دمنةٌ لم تكلّمِ بحومانةِ الدرّاج فالمتثلّمِ
ودار لها بالرقتين كأنها مراجعُ وشمٍ فى نواشرِ معصمِ
بها العِين والآرامُ يمشينَ خِلفةً وأطلاؤها ينهضنَ مِن كُلِّ مَجثمِ
وقفتُ بها من بعد عشرينَ حجةً فلأْيًا عرفتُ الدارَ بعد توهّمِ
فلمّا عرفتُ الدارَ قلتُ لربعها : ألا انعمْ صباحاً أيها الربعُ واسلمِ

هذا وما قبله من الشعر الوصفى الذى يزيد فى ثروة الفنّ ويوسّع أفقـه ، ومما يُنسَب الى عنترة . وفى البيت الثانى موضع كبير للشك لبعد العرب عما يُرى فيه من آثار الصناعة :

لمن طللٌ بالرقتين شجانى وعاثت به أيدى البلى فحكانى
وقفتُ به ، والشوق يكتب أسطراً بأقلامِ دمعى فى رسوم جَنانى

كان هذا شأن القوم فى العصر الأول ، وقد بقى لهذا المذهب أثره حتى فى العصر الأُموى الذى ألبس الشعر ثوباً جديداً من الحضارة . وهذا ما يقوله الأخطل :

لمن الديارُ بحايلٍ فوُعالِ درستْ وغيَّرها سِنونَ خوالِ
دَرَجَ البوارحُ فوقها فتنكَّرتْ بعد الأنيسِ تعارفُ الأطلالِ
فكأنما هى مِن تقادم عهدها ورَقٌ نُشرن من الكتاب بوالِ
دارٌ تبدّلت النعامَ بأهلها وصُوارَ كلِّ ملمّعٍ ذيّالِ

أما جرير فيقول :

ما للمنازل لا يُجبنَ حزينا أصممن أم قَدُمَ المدى فبلينا ؟

على أن جريراً خيرٌ من الأخطل ، فقد أخرج نفسه وفنه من هذا المضيق بعض الشىء فقال :

حىَّ الديارَ كوحى الكاف والميمِ ما حَظُّكَ اليوم منها غيرُ تسليمِ

بل هو قد استحدث للشعر لغةً جديدة فى وصف الديار ، فانظر الى البيت الثانى من قوله :

لمن الدّيارُ كأنها لم تُحْلَلِ بين الكناسِ وبين طلحِ الأعزلِ ؟
ولقد أرى بك ، والجديدُ الى بِلَى مَوْتَ الهوى وشفاءَ عين المجتلى

ليس هذا هو التجديد بعينه ولكنه الهمُّ به والنزوع اليه ، فدعنى أنتقل بك الى العصر العباسى لأريك ما جدّد الحسن بن هانى وأبو تمام والبحترى فى هذا الباب . قال الأول :

لمن رِمنٌ تزدادُ حُسنَ رسومِ على طول ما أقوت ، وطيبَ نسيمِ ؟

أترى لو أن صبرى إذ لم يجد من ذكر الاطلال بدأ قال مثل هذا فى مطلع قصيدته أكنت تصيبه بكثير من اللوم ؟ ان الصديق أبا نواس قد خلع على الاطلال من هذا

الوصف الشائق ما تشتهى الرياض الضاحكة أن يكون لها ، وانك لذو بصر وفطنة ، واليك ما يقوله فى قصيدة أخرى :

ألا لا أرى مثلى امترى اليوم فى رسم تغمّ به عينى ويلفظه وهمى
أنتْ صُوَرُ الأشياء بينى وبينه فظنى كلا ظنّ ، وعلمى كلا علم

ان فى هذا للوناً جديداً من ألوان الفن النوامىّ البديع ، وانه للتجديد بعينه ، وهذا أبو تمام وفنه ، قال :

مِن سجايا الطلول أن لا تجيبا فصوابٌ من مقلتى أن تصوبا
فاسألنها ، واجعل بُكاك جواباً تجد الدّمعَ سائلاً ومُجيبا
قد عهدنا الرُّسوم ، وهى عكاظ للصّبى تزدهيك حُسناً وطيبا
أكثر الأرض زائراً ومزوراً وصعوداً من الهوى وصبوبا

هكذا يقول حبيب فى الطلول وسجاياها وسؤالها وجواب سائلها ، وهكذا يصوّر أيامها الأولى وحياتها البائدة فتراه وكأنما هو يصف لك دولة كانت بالأمس فى أوج مجدها وسؤددها ، ثم عصفت بها حوادث الزمن فلم تترك منها سوى آثار طامسة ، ورسوم صماء ، وان أبا تمام لشاعر خصيب الفكر غنى البيان ، وهذا صوتٌ آخر له ، قال :

على مِثلها من أربُعٍ ومَلاعبِ أذيلتْ مصونات الدُّموع السَّواكبِ
أميدان لهوى من أتاح لك البلى فأصبحت ميدان الصَّبا والجنائبِ
أصابتك أبكار الخطوب فشتتت هوَايَ بأبكار الظباء الكواعبِ

صورة جديدة لا شك فيها ، ومع أنا لسنا من أنصار البديع فى الشعر فانّ براعة الشاعر فى هذه الصورة تكاد تشغلنا عنه وعن رأينا فيه ، ومعنى هذا أنّ ما ورد فيها من أنواع البديع قد جاء متمكناً ، ووقع هادئاً مستقرّاً ، حتى لقد يضيق بنا المذهب إذا زعمنا أنّ الشاعر أراده أو قصد اليه وإن كان هذا هو الشأن ، فانّ أبا تمام مولع بهذا المذهب الذى وضع مسلم بن الوليد أساسه فى الشعر العربى وجرى فيه أبو تمام على أثره ، حتى لقد قال بعض النقّاد من الأقدمين إنّ أبا تمّام يُغرم بالبديع فيدفعه إلى المحال ، وقد يكون قوله (أبكار الخطوب) من هذا النوع عندهم ولكنى لا أرى فيه شيئاً :

يامنزلاً أعنقتْ فيه الجَنُوبُ على رسمٍ مُحيلٍ وشعْب غيرِ مُلتئمِ
هَرمتَ بعدىَ ، والرَّبعُ الذى أفلت منه بُدُورُكَ مَعذورٌ على الهرمِ
عهدى بمغناكَ حسّانَ المعالمِ من حسّانةِ الجيدِ والبُردىِّ والعَنَمِ

* * *

يا موسمَ اللذات غالتك النوى بعدى ، فربعك للصبابةِ موسمُ
ولقد أراكَ من الكواعبِ كاسياً فاليومَ أنتَ مِن الكواعبِ مُحرِمُ

* * *

أدارَ البؤسِ حَبَّبكِ التَّصابى إلىَّ ، فصرتِ جنَّاتِ النعيمِ
لئن أصبحتِ ميدانَ السَّوافى لقد أصبحتُ ميدانَ الهمومِ
أظنُّ الدَّمعَ فى خدّى سيُبقى رسوماً من بكائى فى الرُّسومِ

* * *

لا تُكثرنَّ ملامى إن عكفتُ على رَبْعِ الحبيبِ ، فلم أعكف على وَثَنِ

كلُّ هذه الصور الفضّة والألوان الحلوة الملتمعة لأبى تمّام ، فانظر كيف اختفت الطلول بما فيها من همود ووحشة خلف هذا الجمال الفنى وتوارت وراءه كما تتوارى القبور البالية وراء القصور الأنيقة والحدائق النضرة ، فأنت لا تعافها ، ولا تملّ النظر اليها ، وحسبنا هذا من أبى تمّام ، فالكلمة الآن للبحترى ،قال :

أرُسومُ دارٍ أم سطورُ كتابِ درستْ بشاشتُها على الأحقابِ ؟
يجتازُ زائرها بغيرِ لُبانةٍ ويردُّ سائلُها بغيرِ جوابِ

علق البحترى بالقديم فى البيت الأوّل وألمّ به فى الثانى ، ولكن بديباجةٍ جديدةٍ ولغةٍ أخرى ، وخيرٌ من هذا قوله :

لو لا تعنّفنى ، لقلتُ المنزلُ معنًى تَبَيَّنُهُ بومعنًى مُشكلُ
يا دارَ لا زالت رُباكِ مَجودةً من كلِّ غاديةٍ تُعلُّ وتُنهلُ
فهّمتينا دُوَلَ الزمانِ وصَرْفَهُ وأريتِنا كيف الخطوبُ تُنزَّلُ
أصبابةً برسومِ رامةَ بعد ما عرفتْ معارفَها الصَّبا والشمألُ ؟

حق هذه الأبيات لا تُعدّ من الصور الفنية التي هي من حق الفن على شاعر كبير كالبحتري ، ولعله أقرب الى الرجاء في قوله :

يا دمنةً جاذبتها الريحُ بهجتَها ... تبيتُ تنشرها طوراً وتطويها
لا زلت في حُلَلٍ للغيثِ ضافيةٍ ... يُنيرُها البرقُ أحياناً ويُسديها
تَروحُ بالوابلِ الدّاني رَوائحُها ... على رُبوعكِ ، أو تغدو غواديها

ومن الجديد في هذا الباب قوله :

هَبْ الدّارَ رَدّتْ رَجعَ ما أنت قائلهْ ... وأبدى الجوابَ الرّبعُ عمّا تسائلهْ
أفي ذاكَ بُرْءٌ من جوًى ألهبَ الحشا ... توَقّدُهُ ، واستغزرَ الدّمعَ جائلهْ ؟

على أنّ فنّ البحتري لا يبدو لك واضحاً كما تشاء إلا حيث يقول :

أصَبا الأصائل ، إنّ برقةَ نهمدٍ ... تشكو اختلافكِ بالهبوبِ السرمدِ
لا تُتعبي عرَصاتِها ، إنّ الهوى ... مُلقى على تلك الرُّسومِ الهُمّدِ
دِمَنٌ مَوَاثلُ كالنجومِ ، فانْ عفتْ ... فبأيّ نجمٍ في الصبابةِ نهتدي ؟

نستفيد من كلّ هذا أنّ أئمة الشعر ما برحوا على توالي العصور يعالجون هذا المذهب ويستحدثون فيه من مختلف الصور والمعاني ما يؤدّي رسالة الفنّ ، ويكشف لنا عن محاسنه ، ومن العجز البالغ المدى أن يقوم شاعر كبير كصبري باشا فيقول في القرن العشرين :

لو أنّ أطلالَ المنازل تنطقُ ... ما ارتدّ حرّانَ الجوانحِ شيّقُ

ودع عنك قوله بعد هذا :

أمطالعَ الأقمارِ أهلُكِ أسرفوا ... في النأي إسرافَ الغنيّ ، وأغرقوا
لو أنهم (قدْ) أنصفوكِ (منازلاً) ... ما حازهم في الكون بعدكِ مَشرقُ

عجزٌ وأبيك ظاهر ، وتقليدٌ أبتر لا معنى له ، ولا فائدة فيه ، وانّ المتنبي وهو أقرب هؤلاء الأئمة عهداً بنا وبهذا العصر الذي نتعاطى الأدب فيه ليصوّب الينا من نظراته الجارحة ونحن على عهدنا من القصور ما يستفيده كلّ أديب من قوله :

بكيتُ يا رَبعُ حتى كدتُ أبكيكا ... وَجُدْتُ بي وبدمعي في مَغانيكا
بأيّ حكمِ زمانٍ صرتَ متّخذاً ... ريمَ الفلا بدلاً من ريمِ أهليكا ؟

أيامَ فيكَ شموسٌ ، ما انبعثن لنا إلا ابتعثن دماً باللحظِ مسفوكا

* * *

لكِ يا منازلُ في القلوب منازلُ أقفرتِ أنتِ ، وهنَّ منكِ أواهلُ

* * *

لا تحسبوا رَبْعَكم ، ولا طللَهْ أوَّلَ حيٍّ فِراقُكم قتلَهْ

* * *

فديناكَ من ربعٍ ، وإن زدتنا كربا فانكَ كنتَ الشرقَ للشمس ، والغربا
وكيف عرفنا رسمَ من لم يدع لنا فؤاداً لعرفانِ الرُّسومِ ، ولا لُبّا
نزلنا عن الأكوارِ نمشي كرامةً لمن بان عنه ، أن نُلمَّ به رَكبا

* * *

أقِلِتْ ، فانا أيها الطللُ نبكي ، وتُرزمُ تحتنا الإبلُ
أو لا ، فلا عَتبٌ على طللٍ إنَّ الطلولَ لمثلها فُعُلُ
لو كنتَ تنطقُ ، قلتَ معتذراً : بي غيرُ ما بكَ أيها الرجلُ
أبكاكَ أنك بعضُ مَن شغفوا لم أبكِ أني بعضُ من قتلوا
ان الذين أقمت وارتحلوا أيّامهم لديارهم دُوَلُ
الحسنُ يرحل كلما رحلوا معهم وينزل حيثما نزلوا

هذا هو المتنبي فرعون الأدب ، وجبار الشعر ، يغزو مملكة الفكر فيستبيح معاقلها وينتهب ما يريد وفوق ما يريد من ذخائرها ، فانك لتراه في كل صورة من هذه الصور خالقاً مبتدعاً ، يبكي الربع حتى يكاد يبكيه ، ويجود بنفسه ودمعه في مغانيه ، ثم يقول لك يا منازل فيجاوبه الفن هكذا فليكن كل قائل ، الى غير هذا من معانٍ مولدة وطرائق هي له وحده ممهّدة ، فاذا قال صبري :

لو أنهم (قد) أنصفوك (منازلاً) ما حازهم في الكون بعدك مشرقُ

اذا قال صبري هذا قال فرعوننا العظيم وجبّارنا الأكبر: ان الذين ...الى آخر البيتين . قال شاعرنا :

هل عند ذاك السربِ أنا بعده في الحيِّ من آماقنا تتدفّقُ

أثر العبقرية فى البيت قوله (مِن آماقنا تتدفق) ، وصبرى من هذا الأثر بين حالتين : حالة البصر بأسرار الفن ودقائقه ، وحالة الاتكال على القديم واعادته فى لباس جديد من اللفظ المصقول والكلام المنمّق ، وهذا نوعٌ من القوّة وضرب من الاقتدار ، ولكنه قليل الفائدة على كل حال . ولقد درج المتنبي على هذا فى طائفة غير قليلة من شعره ، فاغتصب كثيراً من الصُّور المعنوية الرائعة وكساها من حسن الديباجة وجودة السبك ما عجز أصحابها عنه فنسبت اليه وعرفت به ، وقد أجاز هذا علماء النقد ، ولكنى لا أراه حقاً قال الشريف الرضى فى معنى بيت صبرى:

لقد جلّ قدرُ الرزء أن يبلغ البكى ... مَداهُ ، ولو أنّ القلوبَ دُمُوعُ

وقال البهاء زهير ، وهو فى حدّه من المقاربة :

وأقسمُ ما ضاعت دموعى عليكم ... ولو أنَّ رُوحى فى الدُّموع تسيلُ

أمّا الصُّورة بعينها فظاهرة فى قول الشاعر :

الله فى مغرمٍ حُشاشتهُ ... مُنهلّةٌ فى الأدمعِ الذُّرُفِ

وقد تناول المتنبيّ هذا المعنى فقال :

أشاروا بتسليم ، فجدنا بأنفُسٍ ... تسيلُ مِن الآماقِ والسَّمُّ أدمُعُ

السَّمُّ لغةٌ فى الاسم ، وله فى هذا المعنى من قصيدة أخرى :

ليس القِبابُ على الركاب ، وانما ... هُنَّ الحياةُ ترحّلت بسلامِ

ليت الذى خلق النوى جعل الحصى ... لخفافهنّ مفاصلى وعظامى

متلاحظين نسحُّ ماء شؤوننا ... حذراً من الرقباء فى الاكمامِ

أرواحنا انهملت وعِشنا بعدها ... من بعد ما قطرت على الاقدامِ!

وقال غيره فى هذا المعنى :

ترفَّق فما هذى دموعى التى ترى ... ولكنها نفسى تذوبُ فتقطرُ

وهذه صورة أخرى تريك شاعراً يتدفق من فمه وعينه ! وهذا المسكين هو محمد ابن قاسم النحوى قال :

لو عاينت عيناك قَدْفى من فمى ... كبدى ، ودمعى مَعْ دمى مسفوحُ

لرأيت مقتولاً ، ولم تر قاتلاً ... وعلمتَ أنى من فمى مذبوحُ!

كبدي على صدري جرت ، والى متى أغدو أعذّبُ فى الهوى وأروحُ ؟

وهذه صورة عكسية للمعنى تدل على براعة صاحبها واتجاهه الى التجديد . قال :

مَلكتُ دموعَ العين ، ثم رددتها إلى ناظرى ، فالعينُ فى القلب تدمعُ !

قال صبرى :

أمنازلَ الأقمارِ ، أهلُكِ أسرفوا فى النأى إسرافَ الغنىّ وأغرقوا

لو أنّهم قد أنصفوكِ (منازلاً) ما حازهم فى الكون بعدكِ مَشرقُ

كثر القول فى الشموس والأقمار ، وتمشّى كذلك فى هذه الكثرة الى مطالعها ومغاربها ، فمن ذلك قول البحترى :

صدقَ الغرابُ ، لقد رأيتُ شموسَهم بالأمسِ تغربُ عن جوانبِ غُرَّبِ

ولابن هانىء :

بانوا سراعاً ، للهوادج زفرةٌ ممّا رأينَ ، وللمطىّ حنينُ

لا الجوُّ جوٌّ مشرقٌ ، ولو اكتسى زهراً ، ولا الماءُ المَعينُ مَعينُ

لا يبعدنّ اذا العبيرُ له ثرًى والبانُ دوحٌ والشموسُ قطينُ

وله من قصيدةٍ أخرى :

ما للمهارى الناجياتِ كأنّها حتمٌ عليها البينُ والعدواءُ

يدنو منالُ يد المحبِّ ، وفوقها شمسُ الظهيرةِ ، خدرُها الجوزاءُ

وله :

أيحسب سارى الليلةِ البدر واحداً وفى كلِّ الأظعان ثانٍ وثالثُ

وقال الأبيوردى فى هذا المعنى :

لله ما صنعت أيدى الركابِ بنا عشيةَ اختفتْ الأقمارُ فى الكِلَلِ

وله من قصيدةٍ أخرى :

مَنطقُ الدارِ من رحَّل عنها طالما أخرسَ الديارَ الرحيلُ

فَلكٌ أطلع الكواكبَ صُبحاً وطلوعُ النجومِ صُبحاً أفولُ

فأما قول صبرى أسرفوا فى النأى اسرافَ الغنىّ ، فليس من الصُّوَر الشعرية التى يتقبّلها الذوق الفنى بكثير أو قليل من الاستحسان ، وهذا مثلٌ من أقوال المتقدمين فى هذا الباب :

ألِفَ النوى ، حتى كأنّ رحيله للبين رِحْلَتُهُ إلى الأوطانِ

وقال الأبيوردى ، وفيه مزيد من ذكر الأقار ومنازلها :

بمنازلِ القمر اقتدَى فى بُعدهِ قمرُ المنازلِ بين رامةَ والحمى

وفى قوله — لو أنهم قد أنصفوك منازلاً — إكراهٌ عنيف لكلمة (قد) إذ لا محلّ لها فى الكلام . وقد جاءت كلمة (منازل) من الزوائد الملغاة فى ذاتها ولو أحسن الشاعر الصياغة لاستغنى عن هاتين الكلمتين ، ولكان له الخيار فى قوله (أنّهم) فهى كذلك ممّا يقع فى طَرَفٍ من هذا الحكم ، وما عليك من بأس إذا قلت إنّ الجزء الحىّ فى شطر البيت كله هو قوله (لو أنصفوك) وفى معنى انصاف الديار وظلمها ، واحيائها وقتلها ، يقول المتنبى وهو مما ذكرناه له :

لا تحسبوا ربعَكم ولا طَلَلَهْ أوّلَ حىٍّ فِراقُكم قَتَلَهْ

وقد أخذ أبو الحسن التهامى هذا المعنى فقال :

ماتت لفقد الظاعنين ديارهم فكأنما كانوا لها أرواحا

وللأبيوردى فى هذا الباب :

متبدّلينَ لِوَى العقيقِ من الحمى انّ التبدُّل للمصون تَبذُّلُ

قال صبرى :

عِيدَ الفداء ، ألا سعدتَ بسدّةٍ أمسى يحيطُ بها الجلالُ ويُحدقُ

هلا رأيتَ بعابدين مع الملا ملكاً خلائقهُ تضوعُ وتعبقُ

وجمعتَ من تلك الشمائل طاقةً تزدانُ أياماً بها وتَخلّقُ

ورجعتَ من نُورِ الأمير مزوّداً حتى تعودَ وأنت زاهٍ مُشرقُ

الطاقة الحزمة ، وهى هنا بحكم القرينة طاقة الريحان ، وتخلّق الرجل تطيّب بالخلوق ، وهو نوعٌ من الطيب السائل يخالطه ماء الزعفران ، وبين هذا وطاقة الريحان أو ما يشابهه ويدخل فى معناه بَوْنٌ بعيدٌ ، وفى قوله من الطاقة — تزدان

أياماً بها وتخلّق — انتقاص من قدر الممدوح لأن ذلك يفيد أنّ ما فى شمائله من النضارة والطيب لا يدوم طويلاً ، وقديماً قيل :

« يَبْلَى القميصُ وفيه عَرْفُ المندلِ »

وكل ما ذكره شاعرنا الكبير عن العيد وما يستفيده من طيب سجايا الأمير ونوره انما هو من القديم المعاد ، ومما قيل فى هذا الباب :

تسعى المواسمُ كلُّها لرحابهِ إذ لا بهاءَ لها بغيرِ بهائهِ

ومن هذا القبيل قوله فى البيت الثانى (ملكاً خلائقه تضوع وتعبق) . وللبحترى فى هذا المعنى :

العارضُ النجّاجُ فى أخلاقهِ والروضةُ الزهراءُ فى آدابهِ

وقال محمد بن يزيد فى روضة :

كأنّ ما تجتنيه مِن زخارفها أخلاقُ مستحسنِ الأخلاقِ محبوبِ

ولبعضهم :

وما روضةٌ حلَّ الربيعُ نطاقَها وَجرّتْ بها الأنواءُ حاشيةَ البُرْدِ
اذا حَدرت فيها النّعامى لثامَها ثنى عِطفهُ الحوذانُ والتفَّ بالرَّنْدِ
بأطيب نشْراً من خلائقهِ التى تنمُّ بريّاها على العنبر الوردِ

قال صبرى :

أحرزتَ يا عبّاسُ كلَّ فضيلةٍ وبلغتَ شأواً فى العلى لا يُلحقُ
مَن ذا يجارى أخمصيْكَ الى مَدًى وهواكَ سبّاقٌ ، وعزمُك أسبقُ

إحراز الفضائل ، والاستئثار بالمحامد ، وبلوغ الشأو الأبعد ، والأمد الأقصى ، كل هذا مما حفلت به قصائد المديح ، وحفيت من طول ترديده ألسنة الشعراء ، وحسبك أن يقول مهيار الديلمى :

لا أدّعى لأبى العلاء فضيلةً حتى يسلمها اليه عِداهُ

وما أشبه الشطر الثانى من البيت الأول بقول أبى تمام : (هيهات تطلب شأوَ مَن لا يُلحَق) وفى السبق الى الغايات يقول البحترى :

ولقد جريتَ الى المعالى سابقا فأخذتَ حظَّ الأوّلِ المتقدّمِ

وله فى هذا المعنى :

طلوبٌ لأقصى غايةٍ بعد غايةٍ إذا قيل يوماً قد تناهى تزيّدا

ومن الخطأ فى هذا الباب قول صبرى : (مَن ذا يُجارى أخمصيك ؟) فانّ الملوك لا تمدح بمثل هذا ، وأولى بهذه المجاراة أن تكون بين العدّائين كالسّليك بن السّلكة ، والشنفرى وأمثالهما ، فليس المجد مما يُنال بالعدو على الأقدام فيكون للأخمصين عملهما فيه ! قال البحترى :

إذا سوّددٌ دانَى له ، مَدَّ همَّهُ إلى سوّددٍ نائى المحلِّ يُزاولُهْ

لم يقل مدّ قدمه ، أو طار بأخمصيه ، وهذا هو المتنبى يريك مجل الأخمصين من المدح . قال :

وما تنقم الأيامُ ممَّن وجوهُها لأخمصهِ فى كلِّ نائبةٍ نعلُ !!

وله ، وفى الشطر الأول من البيت نظر :

فبأيّما قَدَمٍ سَعيتَ الى العلا ادمُ الهلالِ لأخمصيكَ حذاءُ

وقال :

وكيف لا يُحسَدُ امرؤٌ عَلَمٌ لهُ على كلِّ هامةٍ قَدَمُ ؟

وفصل الخطاب فى هذا الباب لشيخنا أبى العلاء المعرّى إذ يقول :

فالمرءُ يَقعدُ بالمكارمِ قائماً وَيقومُ فى طلب المعالى قاعدَا

على أنّا لا نظلم المتنبى فقد قال من قبل :

وحقٌّ له أن يسبقَ الناسَ جالساً ويُدرِكُ ما لم يُدركوا غيرَ طالبِ

وَيُحْدَى عرانينَ الملوكِ، وإنّها لمَنْ قدميْهِ فى أجلِّ المراتبِ

بقىَ من البيتين قول صبرى : (وهو سبّاقٌ وعزمك أسبق) .يقول إنه اذا أراد أمراً سبق عزمه إرادته فكان ما يريد ، وهذا من المعانى المطروقة التى كَثُرَ تداولها لما فيها من غلوٍّ شديدٍ ، وإغراقٍ لا يستقيم فى العقول ، وعندى أنّ هذا النوع من أكبر عيوب الشعر وأظهر مساوبه ، وقد يشفع فيه شىء واحد هو أن

يجيء فى باب الوصف المطلق ، فأما فى باب المديح فلا . ومن النوع المقبول عندى قول ابن هانىء فى وصف الخيل :

عُرِفَتْ بساحة سَبقها ، لا أنّها ... علقت بها يومَ الرهانِ عيونُ
وأجَلُّ علم البرق فيها أنهـــا ... مرّتْ بجانحتَيْـهِ ، وهى ظُـنونُ !

وقول البحترى فى جواد :

جارَى الجيادَ ، فطارَ عن أوهامها ... سَبْـقاً ، وكاد يطيرُ عن أوهامه !

قال المتنبى فى معنى صبرى :

اذا كان ما تنويهِ فعلاً مضارعاً ... مضى قبل أن تُـلـقَى عليه الجوازمُ !

وقال .

أمْضَى ارادتَـهُ ، فسوفَ لهُ قدٌ ... واستقْرَبَ الأقصى ، فثمّ له هنا !

قال صبرى :

إن يُرتجلْ عُرفٌ ، فأنتَ الى الذى ... لم يَرتجـله المالـكونَ مُوفّـقُ

معنى قديم يظنه بعض المتأدبين أو كثيرٌ منهم من مبتكرات صبرى ، أو أن الأصل فيه قول شوقى فى بعض منثوراته : (فارتجل نظرةً فى السّماء) ، وليس كذلك. قال طريح بن اسماعيل الثقفى :

وقد كنتَ تُـعطينى الجزيلَ بديهةً ... وأنتَ لما استكثرتُ مِن ذاك حاقرُ
فأرجع مغبوطاً ، وترجعُ بالتى ... لها أوّلٌ فى المكرماتِ وآخرُ

ويقول ابن هانى ، والصورة واحدة :

أطافت بخرقٍ يسبقُ القولَ فعلُهُ ... فليسَ لِيومَيْهِ وعيدٌ ولا وعدُ

وقال الأبيوردى :

جاء النّدَى والبأسُ منكَ بديهةً ... لمّا كرهت الوعدَ والايعادَا

وألمّ المعرّى بهذا المعنى فقال فى السيف :

غِرارُهُ لِسانا مَشرَفيٍّ ... يَقولُ غرائبَ الموتِ ارتجالا

وليس الموت قولاً ، فهو انما يريد الفعل . وقال ابن عمّار :

رَوِّى ليضربَ، وابتدهتَ بضربةٍ ... انّ الطعانَ بداهةُ الفرسانِ

وقال ابن برد :

يا شاعرَ الحسنِ، بى ترفّقْ ... لا تقتلنّى كذا بديها

قال صبرى :

سدّد سهام الرأى بالشورى يُحِطْ ... بكَ منهُ فى ظُلَمِ الحوادثِ فيلقُ

واسبقْ بهِ، واضربْ بهِ، وافتح به ... ما شئتَ من بابِ أمامَكَ يُغلقُ

يذكر صبرى فضل الشورى، ويصف ما لأصالة الرأى من حسن الأثر فى تدبير الأمور، وكيف أنه يغنى غناء الجيوش ويقوم مقامها، وليس له من كلّ هذا شىء، فهو يردّد لنا أقوال الأقدمين، ويبلغنا رسالاتهم. قال بشار بن برد فى المشورة :

إذا بَلغ الرأىُ المشورة، فاستمن ... برأىِ نصيحٍ، أو نصيحةِ حازمِ

ولاتحسب الشورى عليك غضاضةً ... فانّ الخوافى قُوّةٌ للقوادمِ

فأما قول صبرى فى الرأى ووضعه موضع الجيش فمن قول بعضهم :

يُلفَى اذا ما الجيشُ كان عرمرماً ... فى جيشِ رأىٍ لا يُفَلُّ عرمرمِ

وقال البحترى :

وبعثت كيدكَ غازياً فى غارةٍ ... ما كان فيها السّيفُ غيرَ مُفيّلِ

وقال ابن الرومى :

تراهُ عن الحربِ العوانِ بمعزلٍ ... وآراؤه فيها وإن غابَ شُهَّدُ

فأما ما قيل فى منزلة الرأى وأثره، وسداده وجودته، فما لا سبيل الى استقصائه وحسبك أن ندلّك على بعضه، قال المتنبى :

الرأىُ قبلَ شجاعةِ الشجعانِ ... هو أولٌ، وهى المحلُّ الثانى

ولربّما طعنَ الفتى أقرانَهُ ... بالرأىِ قبلَ نطاعنِ الأقرانِ

وقال أبو تمام :

وما شىءٌ من الأشياء أقضى ... على المهجات مِن رأىٍ سديدِ

وقال يمدح :

مجرّداً سيف رأيٍ من عزيمته ... للبأس، صيقلُه الاطراقُ والفِكَرُ
عَضباً ، اذا سلَّهُ في وجهِ نائبةٍ ... جاءت اليه صُرُوفُ الدهر تعتذرُ

وقال ابن هانئ :

فاذا بعثت الجيشَ فهو منيةٌ ... واذا رأيتَ الرأيَ فهو قضاءُ

وقال آخر :

وإن مضى رأيُهُ أو حَدُّ عزمتهِ ... تأخرَ الماضيان : السيفُ والقدرُ

وهل رأيت خللاً أو اضطراباً كالذى تراه فى قول صبرى عن الرأى :

واسبق به ، واضرب به ، وافتح به ... ما شئتَ من بابٍ أمامكَ يُغلقِ؟

إنّا إذا جرّدْنا هذا البيت مما فيه من خطل وتشويش وجدناه يمتُّ بصلة قوية الى قول الامام الشافعىّ :

الجَدُّ يُدْنِى كلَّ أمرٍ شاسعٍ ... والجَدُّ يَفتحُ كلَّ بابٍ مُغلقِ

قال صبرى :

عوَّذْتُ مجدَكَ أن تنامَ وفى الحمى ... أملٌ عقيمٌ ، أو رجاءٌ مُخفقُ

وفى هذا المجد المعوَّذ يقول المعرّى :

أعاذ مجدَكَ عبدَ الله خالقُهُ ... من أعينِ الشُّهبِ ، لا من أعينِ البشرِ

ويقول المتنبى :

كأنَّ الردى عادٍ على كلِّ ماجدٍ ... إذا لم يُعوَّذ مجدُه بعيوبِ

وفى معنى الأمل العقيم أو الرجاء المخفق ونحوهما يقول الشريف الرضى :

وما الفخرُ فى أدبٍ ناجحٍ ... يُضافُ إلى مَطلبٍ عاقرِ

ويقول الأبيوردى فى المستظهر بالله :

يا خيرَ مَنْ ألقحَ الآمالَ نائلُهُ ... بمَوْعدٍ يَسِلدُ النَّعماءَ مضمونِ

ولأبى تمّام :

تُلقّح آمالاً وترجو نتاجَها ... وعمرُكَ مما قد ترجّيهِ أقصرُ

أما معنى بيت صبرى فى قول الشريف الرضىّ :

نُعمى أميرِ المؤمنينَ حَرِيَّةٌ ألاَّ تنامَ عن الرجاء المهمَلِ

قال صبرى :

ولُبَّ مُحَلٍّ فى النهى متحكّمٍ قد كاد يحترمُ النفوسَ ويُوبِقُ
أرسلتَ فيه نظرةً ضَمِنَ الحجى والعلمُ نُصرتَها ، وقلبٌ مُشفِقُ
وأخذتَ رأىَ أُولى النُّهى مستوثقاً مستوزراً ، وكذا الحكيمُ يُدَقِّقُ
حتى اهتديتَ الى الصوابِ ، ولم يزل بينَ الصواب وبين رأيكَ مَوْثِقُ
وأهبْتَ ، فابتكر النضارُ سحائباً تهمى ، وتفتقدُ المحيلَ ، وتُغدِقُ

ليس فى هذه القطعة شىء من المحاسن الفنية ، وهى كما تراها فى كثير من أجزائها ركيكة النظم ، متداعية البناء ، وموضع ذلك قوله فى البيت الثالث (وأخذت رأى أولى النهى) وقوله فى البيت نفسه (مستوزراً وكذا الحكيم يدقّق) فالجملة الأولى من الشّوق المبتذل ، والكلمة الأولى من الجملة الثانية لا معنى لها فى هذا المقام . وسائرها من الكلام الذى يُجاء به لسدّ الفراغ فحسب ! ولا يشفع فى ذلك اطّراد المعنى فأنت ترى الفلق باديا فى هذا الجزء من البيت وهو قوله (وكذا الحكيم يدقّق) فأما قوله فى البيت الرابع (حتى اهتديت الى الصواب) فاتهام لرأى الممدوح وطعنٌ عليه ! ألا ترى أن الشاعر لم يغفل عن ذلك فى نفسه فاحتال لستر العيب وسدّ الخلل بقوله (ولم يزل بين الصواب وبين رأيك موثق ؟) وفى البيت الخامس من الاضطراب وسوء السياق ما تراه فهو يقول إنّ الأمير أهاب فابتكرت سحائب النضار ـ تهمى وتفتقد المحيل وتغدق ـ وما هكذا يكون الترتيب فى مثل هذه الصورة والصواب — تفتقد المحيل فتهمى وتغدق — وقد أراد بالمُحيل الماحل أو ما فى معناه فأخطأ : فالمُحيل ما أتى عليه الحول من شىء أو صار من حال الى حال ، ونحو ما يظهر لك واضحاً من قول ابن المعتزّ :

ألم تحزن على الرّبع المُحيلِ وآثارٍ وأطلالٍ مُحُولِ ؟

ومن عيوب هذه الصورة المبالغة فى وصف الحال والتّجافى به عن الوجه الأمثل ، فالمعنى أن الأمير رأى الجهل فاشياً فى الأمة فأراد أن يُنقذها من غوائله بنشر العلم والمعرفة ، وليس فى هذا من غوامض الأمور ومشكلاتها ما يُثير هذه

الحركة أو يقيم تلك القيامة : يستشير الأمير ، ثم يستوثق ، ثم يستوزر ويدقّق ، ثم يهتدى الى الصواب بعد أن خفيت وجوهه ، وتنكّرت معالمه ، ما هذا كله ؟ إنه لإسراف في القول كبير ، وليته كان من نوع ذلك الاسراف الذى ورد ذكره على لسان شاعرنا العظيم فى البيت الرابع من هذه القصيدة .

الحقُّ أن صبرى قد اتّهم الأمير كثيراً فى رأيه وفطنته ، وليس هذا هو المذهب حتى فى عظام الحوادث وجلائل الأمور ، قال مهيار الديلمىّ :

ودبِّر الدنيا برأىٍ واحـــدٍ يأنفُ أن يشركه فيها أحـــدْ
اذا استشار لم يزد بصيرةً ولا يلوم رأيه اذا استبدّْ

وقال الشريف الرضىّ :

يستمعُ الرأىَ ، وعنهُ غِنًى قد يُصْقَلُ السَّيْفُ ، وَلم يَطْبَعِ

وقال البحترى :

اذا انسابَ فى تدبيرِ أمرٍ ترافدتْ لهُ فِكَرٌ يَنجحْنَ فى كلِّ مَطلبِ

ومن قوله فى هذا المعنى .

إذا ما جرى فى حَلبةِ الرأى برّزتْ نجاربُ معروفٍ له السبقُ قارحُ

وله :

تَشفُّ أقاصى الرأىِ فى بَدآتهِ لعينى وَسِترُ الغيبِ غيرُ رَقيقِ

وله :

إذا المرءُ لم تبدهكَ بالحزم والحجى قريحتُهُ لم تغنِ عنه تجاربُهْ

وقال المتنبي

قد كفتكَ التجاربُ الفكرَ حتى قد كفاكَ التجاربَ الالهامُ

وقال سلام الخاسر ، ويروى لأبى نواس :

بديهتُهُ وفكرتهُ سواءٌ اذا ما نابَهُ الخطبُ الكبيرُ
وأحزمُ ما يكونُ الدّهرَ رأياً اذا عَنَّ المشاورُ والمشيرُ

فأما قول صبرى – بين الصواب وبين رأيك موثقُ – فانا نعرض عليك من الصُّوَرِ ما يدلك على مواضعه من الشعر القديم ، قال أبو نواس :

مَلِكٌ تقصر المدائحُ عنه هاشميٌّ ، مُوفَّقٌ للصوابِ

وقال ابن المعتز :

تنسابُ مِثلَ الأرقمِ المنسابِ كأنما تنظرُ عن شهابِ

بمقلةٍ وَقْفٍ على الصوابِ

وليس هذا فحسب فانا نميل بك ناحية هى الى الانصاف أقرب ، وبالنقد الفنى الدقيق أشبه ، وأنت ترى أن هذا الموثق الذى عقده الشاعر بين الصواب وبين رأى الأمير يجعلها بمنزلة الحليفين أو العقيدين أو نحوهما ، وهذا أبو تمام يقول :

حليفُ ندًى ، وترْبُ علا ، إذا ما هتفتَ به ، وسَيفُ خليفتينِ

وقال :

مَلِكٌ إذا نُسِبَ الندى مِن ملتقى طرَفيْه ، فهوَ لهُ أخٌ وحميمُ

وقال :

هذا أخوك الندى ، لو أنهُ بَشرٌ لم يُلْفَ طرفةَ عين غيرَ مُبتسمِ

وهذه صورة أخرى من قول أبى تمام تعطى المعنى الذى انتحله صبرى :

مسترسلينَ الى الحتوفِ ، كأنما بينَ الحتوف وبينهم أرحامُ

فأما أن الجهل يميتُ النفوسَ كما يقول صبرى فقديماً قال المتنبي :

أماتكمُ مِن قبل موتِكم الجهلُ وجرَّكمُ مِن خفةٍ بكمُ الخَبلُ

فأما قوله :

وأهبتَ فابتكر النضارُ سحائباً تهمى ، وتفتقدُ المُحِيلَ ، وتُغدقُ

فهو من حيث سحائب النضار ينظر الى قول بديع الزمان الهمذانى :

وكاد يحكيك صَوْبُ المزنِ منسكباً لو كان طلقَ المحيّا يعطرُ الذهبا

وقول أبى تمام :

بحرٌ من الجودِ يرمى مَوْجُهُ ذهباً حبابهُ فضة زِبلتْ بعقيانِ

وأما ما ورد فى البيت عن عمل هذه السحائب وانها تفتقد المحول ـ لا المحيل ـ فتهمى وتغدق ، أمّا هذا فمن باب قول ابن المعتز فى السحاب :

لم يَدَعْ أرضاً من المحل إلا جاد أو مَدَّ عليها جَنَاحا

وقال آخر يصف دمنة :

كأن عَناءً لها أن ترى يبيساً من الأرضِ لم يُبْلَلِ!

قال صبرى :

إن أمرعت تلك الموات، وأورقتْ فيها الرياضُ ، فانما لك تُورِقُ

وإيراق الرياض من أهون صفاتها ، وأدنى منازلها ، وقدنزل الشاعر فى هذا على حكم القافية ، وما أكثر جنايات هذا الحكم ، فلو أنّ القصيدة كانت رائية لقال :

إن أمرعت تلك الموات وأثمرت فيها الرياضُ ، فانما لك تثمرُ

ولكان هذا أجود ، وما أظن المتنبي ترك لشاعرنا شيئاً من هذا المعنى بعد قوله :

إنّ البلادَ وإنّ العالمينَ لكا

قال صبرى فى ذكر دنشواى :

وأقلتَ عثرةَ قريةٍ حَكم الهوى فى أهلها ، وقضى قضاءً أخرقُ

إن أنّ فيها بائسٌ مما به وأرَنّ ، جاوَبهُ هناك مُطوَّقُ

جاء البيت الأوّل بعد قوله (إن أمرعت) فهو منقطع الصّلة بما قبله ، بل هو من المفاجآت المتناهية فى الشذوذ ، وأنت تعلم أىّ مطوَّق يريد فى البيت الثانى ، انه يريد حمام دنشواى ، فانظر الصّلة بين هذه الصّورة وبين قول ابن هانىء :

ليالىَ لا آوى الى غير ساجعٍ ببيتك ، حتى كلُّ شىءٍ حمائمُ

ولما التقت ألحاظنا وَوُشاتُنا وأعلنَ سرُّ الوشى ما الوشىُ كاتمُ

تأوّهَ إنسىٌّ من الخدرِ ناعمٌ فاسعَدَ وحشىٌّ من السدرِ باغمُ

قال صبرى :

شكرتك مصرُ على سلامة بعضها شكراً يغرّبُ فى الورى ويشرّقُ

بيت مقفر من الروح الشعرى ، متجافٍ فى لفظه ومعناه عن أدب الفن ونظام الصناعة ، فان سلامة بعض مصر فى قول الشاعر وبقاء سائرها فى جانب آخر ليس من

الصُّورَ التي يصحّ أن تتمثّل في مدارج الشكر ومواطن الثناء ، وقد ترادف ذكر التشريق والتغريب في ميراثنا الشعري فملته النفوس ، ومنه قول البحتري :

أشرّقٌ أم أغرّبُ يا سعيدُ وأنقصُ من زماعي أم أزيدُ ؟

وقول الآخر :

شرّقْ وغرّبْ تجدْ من غادرٍ بدلاً فالأرضُ من تُربةٍ والناسُ من رجلِ

وقال البهاء زهير :

وحبستُ في مصر عليك ركائبي غيري يغرّبُ تارةً ويُشرّقُ

قال صبري :

قانون دنشاوايَ ذاك صحيفةٌ تُتلى فترتاع القلوبُ وتخفقُ
هل يُرتجى صَفوٌ ويهدأ خاطرٌ والموتُ حول نصوصها يترقرقُ ؟

أباح لنفسه في البيت الأول ما ظنّ أنه من الضرورات الشعرية فجعل حركة الشين من دنشواي ألفاً ، وقد كان له متسع لو تحوط ، فأما أن الموت يترقرق حول نصوص قانون دنشواي أو صحفته فذلك ما سبق اليه ، وهو يتمثل في كثير من الصور كقول بعض الاعراب في اسماعيل بن صبيح كاتب الرشيد :

له قلمًا بُوسٍ ونُعمى ، كِلاهُما سحابتُه في الحالتينِ دَرُورُ

وكقول ابن المعتزّ :

كم مَنايا ، وكم عطايا ، وكم حَتْـ ـفٍ وعيشٍ ، تَضُمُّ تلك السُّطورُ

ومنه قول أبي تمام في القلم :

لُعابُ الأفاعي القاتلاتِ لُعابُهُ وأَرْيُ الجَنى اشتارتهُ أيدٍ عواسِلُ

ولسليمان بن وهب في هذا المعنى :

إذا ما التقينا وانتضينا صوارماً يَكادُ يُصمُّ السامعينَ صريرُها
تَظلُّ المنايا والعطايا شوارعاً تَدورُ بما شئنا ، وتمضي أمورُها

بَقِيَ لونٌ من هذه الصُّورة يقوم في قوله (يترقرق) وهو قائم على أشدّه فخامة وروعة في قول المتنبّي :

بَناها فأعلى والقَنا يقرعُ القَنا وموجُ المنايا حولها مُتلاطمُ

ومما قيل على لسان الحمامة لبعض الشعراء :

والموتُ يلمعُ مِنْ جَنَاحَيْ خاطِفٍ

قال صبرى :

لنْ تبلغ الجرحى شفاءً كاملاً ما دام جارحُها المهنَّدُ يبرقُ

وأقرب منه الى معنى البيت قول المتنبّى :

واحتمالُ الأذى ورؤيةُ جانيـ ـهِ غِذاءٌ تضوَى بِه الأجسامُ

قال صبرى فى ختام القصيدة :

وَالله عونُك إن ركبتَ الى العلى طُرقاً تَضلُّ بها الهُداةُ وتفرقُ

والأمرُ أمرُكَ ، لا يُشابُ بريبةٍ والحكمُ حُكمكَ ، والالَهُ مُصدِّقُ

ويقول البحترى :

أنْهُ جارُكَ ، تبتغى ماتبتغى فى المكرماتِ ، وترتقى ما ترتقى

وفى معنى الطرق يضلّ بها الهداة يقول المنخّل :

وديمومةٍ قفرٍ يَحارُ بها السَّقطا

والقطا قلما يحار ، ومنه المثل (أهدى من القطا) ومن قول بعضهم :

نميمٌ بِطرقِ اللُّؤم أهدى مِن القطا وَإن سلكتْ سُبلَ المكارم ضَلَّتِ

وفى هذا المعنى يقول الآخر :

يحارُ فى حافتَيْها المدلجُ الهادى

فأمّا فى معنى الخوف فيقول القطامى :

بكلِّ مُخترقٍ يجرى السَّرابُ بهِ يُمسى وَرَاكبُهُ من خوفهِ وَجِلُ

وفى البيت صورة من قول صبرى — إن ركبت — وللأخطل :

وَجَوْزِ فلاةٍ ما يُغمِّضُ رَكبُها ولا عينُ هاديها من الخوفِ تغفلُ

وقال المتنبّى :

كم تَمهمهٍ قذفٍ ،قلبُ الدّليل بهِ قلبُ المحبِّ، قضانى بعدَ ما مَطلا

وفى معنى البيت الأخير من القصيدة يقول المتنبّى :

والأمرُ أمرُكَ والقلوبُ خوافقٌ ... فى موقفٍ بين المنيّةِ والمنى

وأقرب منه الى ذلك المنحى قول كمال الدين الفقية :

بَقِيتَ بقاءَ الدهرِ أمرُكَ نافذٌ ... وَسعيك مشكورٌ، وحُكمكَ مُنصفُ

لواء الحسن

من مطوّلات صبرى قصيدة رقيقة يصح أن تسمى (لواء الحسن) أو (ملك الجمال) فهى تُصوّر لنا جمال المرأة وسلطانها ، وترينا ما لها من أثر بالغ ونفوذ كبير فى الحياة ، واذا لم يكن الشاعر ترجمان الجمال فمن يكونه ؟ وهل لفنه سوى المرأة تعلمه ما هو ، وتوحى اليه كيف تكون أنواعه وفنونه ؟ وهذه هى القصيدة ، قال صبرى :

يا لواءَ الحسنِ ، أحزابُ الهوى ... أيقظوا الفتنةَ فى ظلّ اللواءْ

فرّقتهم فى الهوى ثاراتهم ... فاجمعى الأمرَ ، وصُونى الأبرياءْ

إنّ هذا الحسنَ كالماء الذى ... فيهِ للأنفسِ رِىٌّ وشِفاءْ

لا تذودى بعضَنا عن وِرْدِه ... دُونَ بعضٍ ، واعدلى بين الظّماءْ

أنتِ يَمُّ الحسن ، فيه ازدحمت ... سُفنُ الآمالِ ، يزجيها الرجاءْ

يقذفُ الشوقُ بها فى مائجٍ ... بين لجّيْنِ : عناءٍ ، وشقاءْ

جعل صبرى المرأة فى مملكة الجمال كاللّواء ، تثور حوله معارك الحبّ بين أحزابه وتستيقظ الفتنة فى ظلّه — والفتنة نائمة لعن الله من أيقظها الاّ فى هذه المعركة ، وتحت ذلك اللواء — اللهُ أكبر ياثاراتِ عُثمانا — لسنا فى ثارات عثمان رضى اللهُ عنه ، وانما نحن فى ثارات أحزاب الهوى الذين دبّت الفرقة بينهم ، فايقظوا تلك الفتنة النارية الحرّى ، الفتنة التى لا تصيب الذين ظلموا منهم خاصة ، ولكنها تَلُفُّ الأبرياء ، وتغمر الصالحين والمتقين من أمّة الحبّ ورعيّة الجمال ، هو الجمال أيقظ هذه الفتنة الحامية وأثارها ، وسقى هؤلاء وهؤلاء نارها ، هم جميعاً أبرياء ، وهو هو المستبدّ العادل ، ما ظلم يوماً ولا أساء . قال أبو نواس فى شأن هذه الفتنة :

ما براها الله الاّ ... فتنةً حين بَرَاها

وقال :

رشأٌ لولا ملاحته خلت الدنيا من الفتن.

وقال :

كلُّ جزء من محاسنه فيه أجزاءٌ من الفتن.

وليس هذا وحده ، فقد أكثر الأوّلون من ذكر هذه الفتن ، وانّ صبرى لعلى هذا الأثر وفى ذلك السنن :

فرّقتهم فى الهوى ثاراتهم

صدق ، فقد قيل قبل هذا :

قامت حُرُوبُ الهوى على ساقِ.

فاجمعى الأمر ، وصونى الأبرياء !

ولِمَ يكون هذا وقد قال ابن الفارض :

تجمّعت الأهواءُ فيها ، فما ترى بها غيرَ صبٍّ لا يرى غير صبوّتى!

وقال مسلم بن الوليد قبله فى الرشيد :

اذا اختلفت أهواءُ قومٍ جمعتهمْ على العفوِ أو حَدّ الحسام المهنّدِ

وجاء ابن هانى بعده فقال للمعزّ :

وتجمعت فيك القلوبُ على الرضى وتشعبت فى حُبّك الاهواءُ

فاجمعى الأمر ، وصونى الابرياء !

هو أقرب من هذا كلّه الى قول صفىّ الدين الحلى :

لعلّ الحبّ يرفق بالرعايا فيأخذ للبرىء من المُليم.

* * *

انّ هذا الحسنَ كالماء الذى فيهِ للأنفس ريٌّ وشفاءْ

بين الحسن والماء مسافةُ ما بين الاسم والكنية من قرب ، بل هما إن شئت المزيد بمنزلة الجفن والهدب ، كلٌّ يحمل صفة صاحبه ، ويأبى أن يجرى عليهما حكمُ الفاعل ونائبه . الحسن ماء ، والماء حُسن ، هما فى صفة واحدة ، عملهما واحد ، يقع فى دائرة واحدة هى الحياة . هكذا يقول صبرى وما هو بمتهم ، ومن قبل قال الابيوردى :

للحسن أمواهٌ تروق برونقٍ وعلى جوانبهِ الدماءُ تراقُ

دع عنك إغارته على المتنبي فى ذكر الشرف الرفيع وكيف يسلم وكن كأنك لا تعرفه ، إنما نحن بسبيل أمواه الحسن فهنا قتلى تراق دماؤهم حولها ، وهناك فى بيت صبرى نفوس ترويها هذه المياه فتحيا ، ولولاها لذهبت قتلى ولكلّ وجهة . ولقد تظرّف الابيوردى إذ يقول فى قصيدة أخرى :

يقولون ماء الحسن تحت عذاره ... على حاله الأولى ، وذاك غرورُ
ألسنا نَعافُ الماءَ من أجل شَعْرَةٍ ... إذا وَقعت فى الماء ، وهو نميرُ ؟

ولكن ماء صبرى ولله الحمد مصون من شَعر الأبيوردى لاختلاف الموردين . ولأبى الفاسم المطّار فى المعنى :

رقّت محاسنُه ، وراقَ نعيمُها ... فكأنما ماءُ الحياة أديمُها

ولقد حام أبو تمّام على ماء الحسن فتناوله ، وسقى عشّاق أدبه الصافى من نميره العذب ما أراد فقال :

صَبَّ الشبابُ عليها وهو مُقتبلٌ ... ماءً من الحسن ما فى صفوه كَدَرُ

وقال فى لونٍ آخر من الوصف :

خاضت محاسنَها مَخاوفُ غادرت ... ماءَ الصِّبا والحسنِ غيرَ زُلالِ

ومن محاسن البهاء زهير قوله فى هذا الباب :

ريّانُ مِن ماء الجمال مُهفهفٌ ... أرأيتَ غُصنَ البانِ كيف يميلُ ؟

قال صبرى :

لا تذودى بعضَنا عن وِردهِ ... دُونَ بعضٍ ،واعدلى بين الظِّماءْ

يريد قسمة الماء ، وما هو بظالم ، ومن العناء أنْ يكون الشأن على حدّ ما قال الأوّل :

تحومُ فتغشاها العِصِىُّ ، وحولها ... أقاطيعُ أنعامٍ تُعَلُّ وتُنْهَلُ

ولك أن تقول :

وما ضَرَّ الثلاثةَ أُمَّ عمرو ... بصاحبكِ الذى لا تَصبحينا

قال صبرى :

أنتِ يَمُّ الحسنِ ، فيه ازدحمتْ ... سُفُنُ الآمالِ يُزجيها الرجاءْ

يقذفُ الشوقُ بها فى مائجٍ بين لُجَّيْنِ ، عناءٍ وشقاءْ

لهذه الصورة أشباه فى أشعار السَّلَف الأسبق ، قال بعضهم فى الدنيا :

فكّروا فيها ، فلمّا علموا أنها ليست لحىٍّ وطنـا
جعلوها لُجَّةً ، واتّخذوا صالحَ الأعمالِ فيها سُفُنا

وهذه صورةٌ أخرى للسراج الورّاق

يا بنى الآمالِ قد خاب الرجاءْ وقد اشتدَّت ، وقد عزَّ العزاءْ
سُفُنُ الآمال فى بحرِ المنى وحلتْ منا ، فأين الرؤساءْ ؟

وهذه صورة ثالثة لأبى القاسم بن العطّار :

الحبُّ تَسبحُ فى أمواجه المهجُ لو مَدَّ كَفّاً إلى الغرقى به الفرجُ
بَحْرُ الهوى غرقت فيه سواحلُه فهل سمعتم ببحرٍ كلُّهُ لُجَجُ ؟

لم يبق بعد هذا من مريبة فى أن شاعرنا رحمه الله لم يخترع هذه الصورة ، ولقد يُخيّل الينا أنه كان أكثر نظراً إلى قول السراج الورّاق فكما قال هذا (سفن الآمال فى بحر المنى) والآمال والمنى بمعنى ، كذلك قال صبرى (سفن الآمال يزجيها الرجاء) والآمال والرجاء بمنزلة واحدة ، وعجيبٌ أن يغفل صبرى عن مثل هذا ، ولِمَ تكون سفن الآمال عنده بين لجّين من عناء وشقاء وهى تزجى بقوّة الرجاء وعلى يده كما يقول ؟ وما هو وجه التنويع فى قوله عنله وشقاء ، وهما من جنس واحد ، فما بينهما من تفاوت ؟ كل هذا من الزلل أو أشدّه ، قال :

ساعِفى آمالَ أنضـــاء الهوى بقبولٍ من سجاياكِ رُخاءْ
وتجلّى واجعـــلى قومَ الهوى تحت عرش الشمس فى الحكم سواءْ

فى قوله (قوم الهوى) بعد (أنضاء الهوى) أثر واضح من آثار الفقر الذهنى والفاقة البيانية ، وقد كثر استعمال هذه الأنضاء هى ومُضافها صورة ومعنى فى أشعار المتقدمين حتى لقد صارت السلامة فى اجتنابها ، ومنه قول الطغرائى (يقتلن أنضاء حبٍّ لا حراك بها) وقول البحترى :

فان تُلفِنى نِضْوَ العظامِ فانها جريرةُ قلبى منذ كان على جسمى

أما ما أفرغه فى الشطر الثانى من البيت على السجايا من صفة القبول وهى ريح الصبا فكذلك هو من القديم المستعمل ، قال أبو تمام :

خُلُقٌ مُشرقٌ ، ورأىٌ حسامٌ ووِدادٌ عذبٌ ، وريحٌ جَنوبُ

وأدقُّ من هذا فى الوصف قول البحترى :

خُلُقٌ طَيِّعٌ إذا رِيضَ للجو دِ الذى عِطفهُ ، وطَاعَ عِنانُهْ

فى البيت الثانى عرش الامارة ونظام الحكم ، وليس من حقّنا ونحن بسبيل الفنّ أن نداعب روح شاعرنا العظيم وهو يضع لمملكة الجمال ودولة الحب نظاماً باطلاً كهذا — إنه يريد التصفة والسّويّة . وما بهذا ومثله يرتفع شأن المملكة أو يستقيم أمر الدولة ، لا القوة الحاكمة تستطيع الأخذ بهذا الدستور الأخرق ، ولا الرعية على ضعفها وشدة حاجتها تقبل أن تحكم بهذه الشريعة الظالمة ، ومن اتخذ مذهباً غير هذا أو حاول أن يتخذه فقد جهل حقّ الجمال وعمىَ عن معنى الحب ، لسنا بسبيل هذا كما قلنا ، فلننظر الى هذا الملك الكبير هل هو من مؤسّسات شاعرنا ؟ كلا وإليك البيان ، قال زين الدين بن الوردى :

يا أميرَ الجمالِ قُلْ فالمراسيم تُستمعْ !

وقال أبو محمد بن سارة :

كم قد رأت عيناىَ مثلك والياً للحسن ، تنتهب النفوسَ جنودُهْ

الدهرُ طوعُ يديه ، والدنيا لهُ أَمَةٌ ، وأحرارُ الأنام عبيدُهْ

ويقول آخر :

فتعطف على رعاياك يا مَنْ علقت كفُّه لواءَ الجمالِ

ومن أشهر ما قيل فى هذا الباب قول ابن النبيه :

أيا ملكَ القلوب فتكتَ فيها وفتكك فى الرعيّة لا بحلُّ

ومن ملح السّراج الورّاق قوله فى أحد هؤلاء الملوك وكان قد حلق حاجبه :

سلطانُ حسنٍ زاد فى عدلهِ فاختار أن لا يبقى بلا حاجبِ !

قال صبرى :

أقبلى نستقبل الدنيا وما ضمنته مِن معدّاتِ الهناءْ

واسفرى ، تلك حِلَى ما خُلقتْ لتوارَى بلثامٍ أو خباءْ
واخطرى بين النـدامى يحلفوا أنّ روضاً راح فى النادى وجاءْ
وانطقى ، ينثر اذا حـدثتنا نارُ الدرّ علينـا ما نشـاءْ

لو خلا البيت الأول من (معدّات الهناء) لكان خيراً ، وما رأيت هـذه المعدات الثقيلة وقعت فى شعر قبل هذا ولا بعده . وفى الهناء خلاف لغوىّ يعذر فيـه الذين ينكرون استعمال هذه الكلمة على الوجـه المراد فى البيت . ولكنهم يخطئون فى قولهم ان الصحيح هناءة فالكلمتان بمعنى واحد ، وهما من المصادر لقولهم هنأ الطعام اذا ساغ ، ولم أرهما فى الفصيح المهذب من الكلام ، ولا معوّل على قول ابن نباتة .

هناءٌ محا ذاك العزاء المقدّما فـا عبس المحزونُ حتى تبسّما

ولا على قول بعض المغاربة :

وفتيانِ صدقٍ عرّسوا تحت دوحةٍ وليس لهم الاّ الهنـاء فراشُ

فى البيت الثانى اعادة وترديد لكثير من أقوال المتقدمين ، وهذه أمثلة منها ، قال أبو تمام :

ألقى النصيفَ ، فانتِ غادةُ المهـا أُمنيّـةُ الخالى ، ولهوُ اللاّهى

ولأبى الحسن التهامى :

حُطى النقابَ ، لعلّ مِربَ عيوننا فى روضِ حسنكِ يرتعين قليلا

وانظر الى منطق الشاب الظريف إذ يقول :

لك حُسنٌ وللأنامِ قلوبُ

ولغيره فى هذا المنحى :

يا أحسنَ العـالمين وجهـاً ما لكَ من أن تحبّ بُدُّ

كلّ هذا يعطى الصورة التى اشتمل عليها بيت صبرى ، وهو فى بعض لفظه ومناه يمتّ بصلةٍ قويةٍ الى قول مهيار الديلمى فى الثنايا :

لو لم تكن مخلوقةً للرّشف ، لم يُخلقن فُلْجا

شُبِّهت النساء بالرياض كما شُبِّه الرجال بها . وكثر ذلك فى الأدب القديم كثرة بالغة ، فليس فى البيت الثالث أمر جديد ، وقد تروعك تلك الصورة الوصفية التى تريك الروض يذهب ويجىء فى النادى ، ويزيدها روعةً فى ذاتها واستقراراً فى نفسك أن يحلف الندامى كما يقول الشاعر أنها صورة صادقة ، وقد شاء مثل هذا فى توكيد الخبر الوصفى أو الصورة التشبيهية فهو كذلك من آثار الأولين ، ومنه قول أبى تمام :

والسيفُ يحلفُ أنّك السيفُ الذى ما اهتزّ الا اجتثّ عرشَ عظيمِ

واليك من الصوّر الأولى ما يمحو من نفسك ذلك الأثر الذى علق بها من بيت صبرى ، قال أبو تمام :

خرجن فى خضرةٍ كالروضِ ليس لها الا الحلىُّ على أعناقها زَهَرُ

هكذا وجدت البيت ، ولا معنى للخضرة هنا الا اذا أريد بها وصف الثياب ، وهو ما لا أظنه ، وقد جاءت الخضرة بمعنى النعومة وذلك أقرب الى المراد ، وما أظن الكلمة الا محرّفة ، ولعلها فى الأصل (نضرة) . وقال من قصيدة أخرى :

غيداءُ جادَ وَلىُّ الحسنِ سُنَّتَها فَصَاغَها بيديهِ روضةً أُنُفا

ولابن خفاجة الاندلسى :

يا بانةً تهتزّ فينانةً وروضةً تنفحُ مِعطارا

وقال طاهر البغدادى فزاد عليه :

خطرت فكاد الطيرُ يخطر فوقَها إنّ الحمامَ لمغرمٌ بالبانِ

ولعلّ روض شاعرنا الذى يذهب ويجىء فى النادى أشبه شىء بروض كشاجم أو بطاووسه العزيز حيث يقول فى رثائه :

رُزِئتهُ روضةً تروق ولم أسمع بروضٍ يمشى على قدمِ !

وفى معنى المشى يقول أبو نواس :

بدرُ تمٍّ فى قضيبِ مُورقٍ مَن رآى بدراً على الأرض مشى؟!

وهذا هو البحترى لا يكفيه أن يأتى بالروض ماشيا فهو يسوق الربيع كله الى ممدوحه ويضعه بين يديه ، قال :

أتاك الربيعُ الطلقُ يختالُ ضاحكاً من الحسنِ حتى كاد أن يتكلما

نريد الاكتفاء بهذا ، ويأبى ابن المعتز وابن هانىء إلا أن يكونا من هذه الجمهرة فقد قال الأول :

وقفتُ بالروضِ أبكى فقدَ مُشبهِهِ حتى بكت بدموعى أعينُ الزَّهَرِ

وقال الثانى :

وما خِلْتُ أنّ الروض يختال ماشياً ولا أن أرى فى أظهُرِ الخيلِ عَبقَرَا

انتهينا الى البيت الرابع « وانطق ... » وفى معناه يقول البحترى :

ولمّا التقينا واللّوى موعدٌ لنا تعجّبَ رائى الدرّ منا ولاقِطُهْ

فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها ومن لؤلؤٍ عند الحديث تساقِطُهْ

وللنّوريّ :

ترى الدرَّ منثوراً إذا ما تكلّمت وكالدّرّ منظوماً إذا لم تكلّمِ

وقال على بن عطية البلنسىّ :

كلمتنى نخلتُ دُرّاً نثيراً وتأمّلتُ عِقدَها هل تناثرْ ؟

وللأمير محمد بن منجك :

وكأنّ الحديثَ منه هو اللّؤ لؤُ يرْفَضُّ بيننا والجُمانُ

قال صبرى :

وابسمى ، مَنْ كان هذا ثَغرُه يملأُ الدنيا ابتساماً وازدهاهْ

لا تخافى شطحاً من أنفسٍ تَعثرُ الصّبوةُ فيها بالحياهْ

ويقول أبو نواس فى معنى البيت الأول ، وفيه زيادة ظاهرة :

ظبيٌ لِمَبْكاهُ ومَضحكِهِ فينا تُنيرُ وتُظلمُ الدُّنيا

وأمّا ما قيل فى معنى العفّة وهو محصّل البيت الثانى فكثير ، ومنه قول مضرّس بن الحارث المرّى :

تتوقُ اليكِ النفسُ ثمّ أردُّها حياءً ، ومثلى بالحياء خليقُ

وقال مسلم بن الوليد :

أخذتُ لطرفِ العينِ منها نصيبَهُ وأخليتُ مِن كفّي مكانَ المخلخَلِ

ولعبد الله بن المعتزّ :

كم قد خلوتُ بها وثالثُنا النّقى يحمي على الظمآنِ بَرْدَ المَوردِ

وقال المتنبي :

يَرُدُّ يداً عن ثوبِها وهو قادرٌ ويَعصي الهوى في طيفها وهو راقدُ

ولغيره :

ما إنْ دعاني الهوى لفاحشةٍ إلاّ عصاه الحياءُ والكرَمُ

وقال آخر :

فعصيتُ سُلطانَ الهوى وأطعتُ سُلطانَ العفاف

وللشريف الرضيّ :

بتنا ضجيعينِ في ثَوْبَي هوًى وتُقًى يَلُفُّنا الشوْقُ من فرعٍ إلى قدمِ

وله :

وإذا هممتُ بمن أحِبُّ أمانِي حَصَرٌ يعوقُ ، وعفّةٌ تنهاني

هذا شيء مما جاء في معنى العفة والحياء ، وفي البيت جمال فنيّ يتمثل في الصبوة تعثر بالحياء . وليست هذه بالعثرة الأولى تقع بين الشيء والشيء ، فان لها لنظائر كثيرة في أشعار المتقدمين ، قال الشريف الرضيّ :

في موقفٍ تُغضي العيونُ مهابةً فيه ، ويَعثرُ بالكلامِ المنطقُ

وقال الأبيوردي :

أرى نظراتِ الصبِّ يعثرنَ دونها بأعرافِ جُردٍ أو رءوسِ عَوالِ

وللقائد أبي الرضاء :

يا قالةَ الشعرِ قد نصحتُ لكم ولستُ أدْهَى إلاّ من النُّصحِ

صونوا القوافي ، فما أرى أحداً يَعثر فيه الرجاءُ بالنجحِ

قال صبري :

أنت رُوحانيةٌ ! لا تدّعي أن هذا الحسنَ من طينٍ وماءْ !

وقال شوقي :

صُونى جمالَكِ عنا ، إنّنا بشرٌ من التُّراب، وهذا الحسنُ روحانى

وسواء كان المتقدم صبرى أو شوقى فالوصف قديم ، والصورة ترجع الى العصر الاول ، حتى أن القرآن الكريم لم يخل منها (فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) قال شاعر قديم :

أوَ حشيّةَ العينين أين لكِ الأهلُ ؟ أبالحَزْنِ حلّوا، أم بحلّهمُ السّهلُ ؟

وأيّةُ أرضٍ أخرجتكِ ؟ فانّنى أراكِ من الفردوسِ ، إن فُتِّشَ الأصلُ

فِفِي خبّرينا ، ماطعمتِ ، وما الذى شربت ، ومن أين استقلّ بكِ الرحلُ ؟

فانّ علاماتِ الجنانِ مُبينةٌ عليك ، وإنّ الشّكلَ يتبعُه الشّكلُ

ولأبى تمّام :

إنسيّةٌ إن حُصّلَتْ أنسابُها جِنّيّةُ الأبوين ، ما لم تُنسبِ

وله :

ياهذهِ أقصرى ، ماهذهِ بَشرٌ ولا الخرائدُ من أترابها الأُخرُ

وقال الحسن بن هانى :

وَمُضمّخاتٍ بالعبيـ . . . ـرِ نَزلنَ مِن غُرَفِ الجِنانِ ؟

أقبلنَ مِن بابِ الرّصا فةِ كالنمائلِ الحسانِ

وللشريف الرضّى :

أنا منكِ فى كمدٍ على كمدٍ يومى عَلىَّ أمرُّ من أمسى

جِنّيّةٌ ، وَقبيلُها بَشرٌ عَظُمَ البلاءُ بها على الانسِ

ولبعض الشعراء (أهلاً بهِ مَلَكاً فى زِىِّ إنسانِ) ولغيره :

أخرجه رضوانُ مِن دارهِ مخافةَ أن تُفتَنَ الحورُ

قال صبرى :

وانزعى عن جسمك الثّوبَ بينَ للملا تكوينُ سُكانِ السّماءْ

وأرى الدنيا جَناحَيْ مَلَكٍ خلفَ تمثالٍ مصوغٍ من ضياءْ

ذهب البيت الأول بكل ما فى القصيدة من أدب القول ونزاهة النفس ، ولقد كان فى قول الشاعر « واسفرى . . . . البيت » مايكفى ولكنه أبى الا أن يتزيّد فيطلب نزع النياب ، وعجبت لشاعرنا النافذ البصر خليل مطران كيف يُغضى عمّا فى هذا البيت من شطط خلقى كبير وهو يمتدح هذه القصيدة فى (المجلة المصرية) وينزّهها عمّا وقع لبعض الشعراء المتقدمين فى باب الغزل والنسيب من مستنكر الوصف وساقط القول ، ولقد ازدحمت المعانى فى البيت الثانى ازدحاماً يمثل لك لوحة من الصور الشمسية اختلطت فيها الرسوم والأصباغ حتى ما تكاد تستبين كلّ رسم أو لون على حدة — انّ صبرى يضع أمامك صورة الدنيا كأجمل ما يكون الحسن ، وأحسن ما يكون الجمال ؛ ولكنك حين تكدّ ذهنك لتفهم كيف تكون هذه الدنيا كجناحىْ ملك يقوم خلف تمثال من الضياء ، وما وجه الشبه بينها وبين هذين الجناحين ، وما هو هذا التمثال ، وما موضعه ومعناه من الصورة التشبيهية أو المجازية أو أية صورة أخرى هى ما هى — انك حين تكدّ ذهنك لتنتزع من كل هذه الصورة الجميلة فى ذاتها ، بل المتناهية فى الجمال ، صورة معنوية ذات لون خاص ، أو دلالة خاصة ، لا تستفيد شيئاً آخر سوى ما اجتمع لك عند النظرة الأولى ، فحاصل البيت أن الدنيا جميلة ، وإذا كان الشاعر بصدد المرأة فلك أن تفهم أن هذا الجمال ممثّل فيها ، واذا أنت توسّعت فى استنباط الأغراض والمعانى جعلت لجمال العفة والحياء وأدب النفس ، وهو ما ذكره فى هذه القصيدة ، مكانه فى هذه الصورة الخرساء . ولعلك واجد شبهاً بين هذا الذى يقوله صبرى وبين قول صلاح الدين الصفدى فى صفة القمر يبدو من خلال الغصون وفيه خطأ كما سيجىء :

كأنما الأغصانُ لمّا انثنت أمامَ بدرِ التمّ فى غيبهْ
بِنتُ مليكٍ خلفَ شبّاكها تفرّجت منه على موكبهْ

لا أقول أن الشبه تام بين الصورتين ولكنه متقارب ، فأنت حين تعكس الصورة القائمة فى هذين البيتين وتقف وراء الغصون مستقبلاً القمر وهو يطالعك من خلالها تتمثل لك تلك الصورة التى يسوقها صبرى اليك فى وصف الدنيا وتصويرها ، ففى هذه الغصون مَشابهُ من جناحىْ الملك ، والقمر هو التمثال المصوغ

من الضياء ، ومثل هذه الصلة الوثيقة بين الصورتين مما يدركه علماء النقد وينظرون اليه نظراً واسعاً ، فجائزٌ عندهم أن يقال إن بيت صبرى مأخوذٌ من هذين البيتين اللذين لم يسلم صاحبهما من الخطأ ، بل هو قد أخطأ خطأً فاحشاً من جهة الوضع التشبيهى ، فهو قد أراد تشبيه القمر وهو يبعث بأنواره من وراء الغصون ببنت الملك تطلّ من خلف شباكها لترى الموكب فأطلق هذا التشبيه على الأغصان لا عليه ، وقد نقده ابن حجة الحموى صاحب (خزانة الأدب) وأورد قول محيي الدين ابن قرناص فى تصحيح هذه الصورة :

وحديقةٍ غنّاء ينتظم الندى ... بفروعها كالدُّرّ فى الأسلاكِ
والبدرُ يشرق من خلالِ غصونها ... مثلَ المليحِ يُطلُّ من شبّاكِ

ولشاعرنا العظيم قصيدة فى رثاء بطرس غالى باشا من أبياتها :

فتّشتُ ، لمّا لم تجد مقلتى ... كفؤاً ، عن الفضل ليبكى معى
فقيل لى : قد سار فى إثره ... يوم دفنّاه ولم يرجع !

لم يقل شيئاً ، فقد أسرف الشعراء فى مثل هذا ، ومنه قول أبى تمام :

ولم أنسَ سعىَ الجودِ خلفَ سريرهِ ... بأكسفِ بالٍ ، يستقيم ويطلعُ
وما كنت أدرى ، يعلمُ اللهُ ، قبلها ... بأن الندى فى أهله يتشيّعُ

ولك فى هذه الصّورة الكثيرة الوجوه والنواحى ما يدلك على اختناق الروح الفنى فى قول شاعرنا :

سار ولم يرجع ... ، ولبعضهم فى هذا الباب :

ثوى الجودُ والكافى معاً فى حفيرةٍ ... ليأنسَ كلٌّ منهما بأخيهِ

وقال الحسين بن مطير الأسدى :

ولمّا مضى مَن مضى الجودُ والندى ... وأصبح عرنينُ المكارمِ أجدعا

قال صبرى :

يانازلاً بَيْنَ وُفودِ البِلَى ... آنستَهم يامُوحِشَ الأربُعِ

وقال شاعر قديم :

أمّا القبورُ فانّهنّ أوانسٌ ... بجوارِ قبرِكَ ، والديارُ قبورُ

ولابى بكر بن الصائغ :

لئن أنست تلك القبورُ بلحدهِ لقد أوحشت أقطارُهُ وقصورهُ

وعلى هذا المنهاج درج البهاء زهير فى قوله يرثى بعض أصحابه :

الدّارُ مِن بعدكَ قد أصبحت فى وحشةٍ يا مؤنسَ الدارِ

ولولا القافية وعنادها لقال يامؤنس القبر ، وقد توسع المعرّى فى هذا المعنى فقال يرثى الشريف الطاهر الموسوىّ :

إن زاره الموتى كساهم فى البلى أكفانَ أباجَ مُكرمِ الأضيافِ

قال صبرى :

عينىَ فيك اليوم (قبطيّةٌ) تروى الأسى عن (مُسلمٍ) مُوجعِ

والشطر الأول من هذا البيت صورة ناطقة من قول ابن خفاجة الاندلسى :

عَينى بهِ عَينٌ مَجوسيّةٌ تعبدُ مِن وجنتهِ نارا

ومسلم من رواة الحديث ، وهذا هو التوجيه عند البديعيين ، ومنه قول ابن نباتة المصرى :

ملك باهرُ المكارمِ يروى وَجهُ لقياهُ عن (عطاءٍ) و(بشرِ)

ولغيره فيه :

عن (نافعٍ) وَصْلُهُ رَوى لى كما رَوى الهجرُ عن (ضرارِ)

ومن أجود ما قيل من هذا النوع قول ابن رشيق القيروانى فى الأمير تميم ابن المعزّ :

أصحُّ وأعلى ما سمعناه فى الندى من الخبر المأثورِ منذ قديمِ

أحاديثُ رويها السُّيول ، عن الحيا عن البحر ، عن كف الأميرِ تميمِ

وقد عدُّوا الغاية فى هذا الباب قول علاء الدين الوداعى :

مَنْ أمَّ بابكَ لم تبرح جوارحهُ تروى أحاديثَ ما أوليتَ من مِننِ

فالعينُ عن (قُرَّةٍ) والكفُّ عن (صلةٍ) والقلبُ عن (جابرٍ) والأذنُ عن (حسنِ)

وبيت صبرى اذا قيس بهذا المقياس وأعنى من عيب التقليد وقع فى النمط الأوّل والمنزلة العليا من هذا النوع ، وليس هذا بسبيلنا فنحن نريد إطلاق الروح

الفنى وتحريره من أمثال هذه القيود الصناعية التى ذهبت بمجد الأدب ، وأفسدت ما له من قوانين وأحكام . ولقد بلغ من أمر رجال المدرسة البديعية الذين أحدثوا هذه البدع المنكرة فى عالم الشعر أن جعلوا أشعار الفحول من غير فريقهم فى المنزلة الثانية ، وحسبك من هذا العبث أن ترى ابن حجة شيخ علمائهم يبالغ فى التشيّع لفنه حتى ليكاد يقضى لصفىّ الدين الحلّى وابن نباتة على المتنبى فيما وصف به قصيدتين لهما فى معارضة أبى الطيب ، وقد جعلا موضوع هذه المعارضة قصيدتيه اللتين يقول فى مطلع احداهما :

بأبى الشموسُ الجانحاتُ غواربا اللابساتُ من الحرير جلابيا

ويقول فى مطلع الثانية :

أرَقٌ على أرقٍ ، ومثلىَ يأرقُ وجوًى يزيدُ ، وعَبرةٌ تترقرقُ

فقال صفىّ الدين :

أسبلنَ من فوقِ النُّهود (ذوائبا) فتركنَ حَبّاتِ القلوبِ (ذوائبا)

وقال ابن نباتة :

ما بِتُّ فيك بدمع عينى (أشرقُ) إلاّ وأنتَ من الغزالةِ (أشرقُ)

وكل هذا من أجل ذوائب وذوائب ، وأشرق وأشرق ، وهم يسمون هذا النوع الجناس التامّ ويكثرون منه ، فانظر أى شىء من السحرّ الفنى فى هذه الصناعة ! وإليك لونين من قصيدة ابن نباتة فتذوّقهما وارجع الى أنفسهما فى نفسك لترى أيّهما هو الشعر ، قال :

يَمتارُ من دمعى عليك ذوو البُكا فاعجبْ له من (سائلٍ) يتصدّقُ

يا حبذا ليلٌ (نبيعٌ) به الكرى لكننا (لا عَنْ رِضىً نتفرّقُ)

ما مرّنى أنّ (الكُميتَ) بحسّها تحوى الشّقاةُ ، وأنّ فَودى (أبلقُ)

هذا هو اللون البديعى أو الصناعى ، فانظر ما يقول بعد هذا ولك الحكم :

قومٌ لذكراهم على صُحف العلى أصلُ الفخار ، وكلُّ ذكرٍ مُلحقُ

الملكُ بعضُ ديارهم ، فلينزلوا والنجمُ بعضُ جُدودهم ، فليرتقوا

هذا ولا ريب خير اللونين ، وأقوم السبيلين . ولسنا نعادى البديع فى ذاته فهو

عنصر فنى كبير الشأن ، ولكنا نكره أن يكون صناعة فاشية ، وأن يكون له مثل تلك الغلبة وذلك الطغيان . انظر الى قول عبد المطلب جدّ النبى ﷺ :

لا يبزلُ المجدُ إلا فى منازلنا كالنّوم ليس له مأوى سوى المقلِ

فذلك هو « الاستطراد » عند البديعيين ، ومنه قول القاضى الفاضل :

فكأننى ألفٌ ولامٌ فى الهوى وكأن موعدَ وصلكم تنوينُ

هذه ملحة لا شك فيها ، ولكن أين هى من ذلك الجلال وتلك الفخامة ؟

ومن مُلح القوم فى باب الاستعارة قول ابن رشيق :

بادرْ الى اللذاتِ ، واركب لها سَوابق اللهوِ ذواتِ المراحْ

مِن قبل أن ترشفَ شمسُ الضحى ريقَ الغوادى من ثغور الأقاحْ

وقول الوليد بن حيان الشاطبى :

فوق خدّ الوردِ دمعٌ من عيونِ السحبِ يُذرف

برداء الشّمسِ أضحى بعد ما سال يُجفّف

ومن مختار ما يقع فى هذا الباب قول مجير الدين بن تميم :

وليلةٍ بتُّ أسقى فى غياهبها راحاً تَسُلُّ شبابى من يدِ الهرمِ

ما زلتُ أشربها حتى نظرتُ إلى غزالةِ الصبح ترعى نرجسَ الظلمِ

كلّ هذا مستحسن ، وجميل أن يقول ابن سكرة أحد غلاتهم :

قِيلَ ما أعددتَ لِلسَّبَرْ دِ ، فقد جاء بشدّهْ

قلتُ درّاعةُ عرىٍ تحتها جُبّةُ رِعدهْ

ولكن أين هذا من قول ذى الرمّة :

أقامت بها حتى دَوَى العودُ فى الثرى وَلفّ الثريا فى مـلاءتهِ الفجرُ

وقول الراعى :

هُمُ كاهلُ الدّهرِ الذى يتقى به وَمنكبُهُ ، إن كان للدّهر منكبُ

انظر الى الاعرابى كيف يتوفر فى شعره فيقول « إن كان للدهر منكب » وتأمل حاله وحال من يجعل من العرى درّاعة ، ومن الرعدة جبة ، وان المتنبى لمواطن يصغر فيها حتى ليكاد يزدرى ، فمن هذه المواطن الذميمة قوله فى سيف الدولة :

إذا كان ما تنويه فعلاً مضارعاً مضى قبلَ أن تُلقى عليه الجوازمُ

ليس بهذا ومثله بلغ المتنبي ما بلغ من شرف باذخ ومجد عظيم ،وأية قيمة لهذا البيت الذى هو أشبهُ بأشعار النحاة بمعرض قوله فى هذه القصيدة :

وقفتَ ، وما فى الموت شكٌّ لواقفٍ كأنك فى جفنِ الردى ، وهو نائم
تمرُّ بك الأبطالُ كَلمى هزيمةً ووجهُكَ وَضّاحٌ ، وثغرُكَ باسمُ
ضممتَ جناحَيهم على القلبِ ضمَّةً تموتُ الخوافى تحتها والقوادمُ
بضربٍ أتى الهاماتِ ، والنصرُ غائبٌ وصارَ إلى اللبّاتِ والنصرُ قادمُ

قال صبرى :

يا مَنْ سقانى الحبَّ مِن وُدِّهِ هذا ودادى كلُّهُ فاكرعِ

وقال أبو تمّام :

ولقد أتيتك صادياً ، فكرعتُ فى شَبَمِ الذُّلالِ البارِدِ

والشريف الرضىّ :

سقانى على القُربِ كأسَ الاخا ءِ مطاولةً بنسيمِ الصَّفا

فهذا كلُّهُ من منبعٍ واحدٍ ، ومن أشهر شعره تلك القطعة الرقيقة التى يقول فيها :

أقصرْ فؤادى ، فما الذكرى بنافعةٍ ولا بشافعةٍ فى ردِّ ما كانا

جرى فى قوله « بنافعة ولا شافعة » على مشهور قول الناس ، وقد سبقه البهاء زهير إلى ذلك فقال :

أرِحْنى منكَ حتى لا أرى مَنظركَ الوعرا
فقد صرتُ أرى بُعدَ كَ عنّى الراحةَ الكبرى
فما تنفعُ فى الدنيـا ولا تشفعُ فى الأخرى

ومن هذا القبيل قولهم « الفاعل التارك » ولنور الدين العسيلى فى فاعل على لغة أصحاب الأعمال عندنا :

وفاعلٍ يتركنى عامداً وهو لرقّى فى الهوى مالكى

أقول للناس : ألا فاعجبوا من صنع هذا « الفاعل التارك » !

ومعنى البيت كله من قول المتنبّي :

ولا يَرُدُّ عليكَ الفائتَ الحزَنُ

قال صبري يخاطب فؤاده :

سلا الفؤادُ الذي شاطرتَهُ زمناً حملَ الصبابةِ ، فاخفقْ وحدَكَ الآنا

الصورة في هذا البيت معكوسة ، والمعنى غير مستقيم ، فقد أراد الشاعر أن يقول لقلبه إن القلب الذي كان يشاطرك حمل الصبابة قد سلا ، فأجرى فعل المشاطرة على قلبه هو ، وأنت ترى أن وقوع الفعل من قِبَله يُعفيه من عناء هذا السلوّ ، ويريحه من ذلك العبء الذي كان يحمله ، وإذاً فلا معنى لأن يخفق وحده ، ومعنى البيت على الوجه المستقيم من المعاني المطروقة لاتخاذه صورة الحكاية التي قلّ أن يخلو منها شعر الحبّ ، أو تدعها السنةُ المحبّين ، فمن ذلك قول بعضهم :

أشكو الذين أذاقوني محبتهم حتى إذا أيقظوني للهوى رقدوا

وقول الشريف الرضي :

أحذاكَ حَرَّ الوجدِ ، غيرَ مُسامِحٍ وسقاكَ كأسَ الهمِّ غيرَ مُعاقِرِ

وفي معنى شماتة الشاعر بقلبه وقوله (فاخفق وحدك الآنا) يقول عبيد الله ابن عتبة :

قَذُقْ هجرَها ، قد كنتَ تزعم أنهُ رشادٌ ، ألا فاثأرْ بما كذبَ الزعمُ

وللطغرائي في معنى البيت كله :

يا قلبُ ما لكَ والهوى مِن بعد ما طابَ السلوُّ وأقصرَ العشّاقُ ؟

أوَما بدا لك في الإفاقةِ ، والأُلى نازعتهم كأسَ الغرامِ أفاقوا ؟

مَرِضَ النسيمُ وصحَّ ، والداءُ الذي أشكوهُ لا يُرجى له إفراقُ

وهَدا خفوقُ البرقِ ، والقلبُ الذي تُطوَى عليهِ أضالعي خفّاقُ

وهذا ابن وكيع يقول في معنى الشماتة بالقلب :

لقد شمتُّ بقلبي لا فرّج الله عنهُ

كم مُلتهُ في هواهُ فقال : لا بُدَّ منهُ ؟

قال صبرى :

هلاَّ أخذتَ لهذا اليوم اهبتَهُ من قبل أن تصبحَ الأشواقُ أشجانا

أخذُ الأهبة للامر قبل وقوعه مما كثر القولُ فيه ، ولكنا من هذا البيت أمام أمر لا يحلّ لمثله عقدة ، ولا نؤخذ له عُدّة ، وقد يستقيم قول بعضهم :

أقول لها ، والدّمعُ يغلبُ صبرَها أعِدّى لفقدى ما استطعتِ من الصبرِ

قد يستقيم هذا ، وقد يكون مقبولاً كذلك قول ابن المعتزّ :

كلما فكّرَ فى الهجرِ بكى ويحَهُ يبكى لما لم يقعِ

فأما أن يأخذ المحبّ عدّته لسلوّ الحبيب أو لغدره فلا معنى له سوى انتقاض الحب وفساد العلاقة ، ومثل هذا وإن جرى فى القول مجرى الملح فليس بشىء فى مقام النقد ومعرض البحث والنظر ، ومن هذا العبث قول ابن رشيق والمعنى فى البيت الأول مسخر للغرض المتمثل فى البيت الثانى :

فكرتُ ليلة وصلها فى صدّها فجرت بقايا أدمعى كالعندمِ

فطفقتُ أمسحُ مُقلتى فى نحرها إذ عادةُ الكافورِ إمساكُ الدّمِ

إن حال صبرى فى هذا البيت لقريبٌ من حال ذلك الشاعر الذى يقول :

ولمّا نزلنا على زمزمِ ونحن نريد طوافَ الافاضهْ

بكيتُ فقالت : على مَ البكا ؟ فقلتُ : على الودّ أخشى انتقاضه

فقالت : ثكلتكَ من عاشقٍ تُشمّرُ ذيلك قبلَ المخاضهْ

فقلتُ : صدقتِ ، ولكننى أُعلّمُ نفسى طريقَ الرياضهْ

يرى صبرى فى هذا البيت بين الأشواق والأشجان منزلة ، وأن الأولى أخفُّ محملاً ، وأيسرُ عناءً ، واذاً فقد كان قلبه يستطيع أن يتخذ العُدّة والأشواق وحدها هى الغالبة عليه ، أفهذا من جد القول وصحيح الكلام ؟ لعلّ قول الشاعر الحكيم (لا يعرف الشوق إلاّ من يكابده) إنما أُعِدّ لهذا الذى يقوله شاعرنا العظيم ، وارحمتاه لقيس لُبنى إذ يقول :

فواكبدى من شدّةِ الشوقِ والجوى وواكبدى ، إنى الى الله راجعُ !

وهذا آخر يصف لنا الشوق فيصدق :

رَعَى اللهُ مَن هامَ الفؤادُ بحبهِ ومَن كِدتُ من شوق اليه أطيرُ

وانظر الى الشهيد عروة بن حزام إذ يقول لناقته :

متى تجمعى شوقى وشوقَك نظلعى وما لكِ بالعبءِ الثقيلِ يَدان

هو الشوق منذ العهد الأوّل ، لم يَحُل عن طبيعته ولم يتغير ، هو الذى قال فيه مسلم بن الوليد (أغرى بهِ الشوقُ ليلَ الساهرِ الرَّمِدِ) وقال فيه أبو تمام :

هذا مُحبّكَ أدمَى الشوقُ مُهجتَهُ فكيفَ تُنكرُ أن تدمَى مآقيهِ ؟

ووصفه فى مكان آخر فقال :

للنَّارُ نَارُ الشوقِ فى كبدِ الفتَى والبينُ يُوقدهُ هوًى متسومُ

خيرٌ لهُ مِن أن يُخامرَ صدرَهُ وحشاهُ معروفُ امرئٍ مكتومُ

أنا آنيكَ بصبرى نفسه ينقض ذلك القول وينادى أن الأشواق عنصر نارى ، وأنها هى والأشجان بمنزلة واحدة ، فاسمع ماذا يقول فى قطعة أخرى :

يا مَنْ أقام فؤادى إذْ تملكه ما بينَ نارَينِ من شوقٍ ومن شجنِ

الحمدُ لله ، ظهر الحقّ واستبان السبيل ، ونحن نضع الآن هذه القطعة الأنيقة بين يدى النقد ، وإنا لنرى هذا البيت كثير التطلع فى منهجه ومرماه الى قول أبى جعفر بن البنى :

يا مَن يعذّبنى لما تملكنى ماذا تريدُ بتعذيبى وإضرارى ؟

وقد تم المراد فى هذا البيت ، وحلا بيت صبرى من كل شىء ، فهو لا يفيد معنًى فى ذاته ، ولا يعطيك صورةً مستقلةً من نفسه ، وهذا من عيوب الشعر ، وفى النارين والاستعانة بهما على تزيين الكلام وتنميقه يقول أبو نواس :

صَليتُ مِن حبِّها نارَين : واحدةً بَينَ الضلوعِ ، وأخرى بَينَ أحشائى

ويقول الخطيب الحصكفى :

أشكو إلى الله من نارَينِ : واحدةٍ فى وَجنتيهِ ، وأخرى منه فى كبدى

قال صبرى :

تَغديكَ أعينُ قومٍ حولكَ ازدحمت تعطّشى إلى نهلٍ من وجهكَ الحسنِ

وفى معنى ازدحام العيون حول هذا المورد العذب يقول الشيخ أبو الفضل بن أبى الوفاء :

على وجنتيهِ جَنَّةٌ ذاتُ بهجةٍ ترى لعيونِ الناس فيها تزاحما

ولأبى تمام :

انّ حزنى علىّ ، لا بل عليكا بل على مُهجةٍ تسيل لديكا
أنتَ تُزهى بصورة غدت الأبـ ... ـصارُ مِن حُسنها وراحت عليكا

وقال :

لهفَ نفسى علىّ ، لا بل عليكا أن تجولَ العيونُ فى خدّيكا
وعزيزٌ علىّ أن تجتنى الأبـ ... ـصارُ زهرَ الربيع مِن وجنتيكا

ولعلاء الدين المارديني :

قد كتبَ الحسنُ على وجههِ : يا أعينَ الناسِ ، قفى وانظرى !

فأما حُسْنُ الوجوه وما فيه من ماء هو رىُّ العيون الظماء والقلوب الحائمة ، فليس هذا بأوّل العهد به ، وهذه طائفة من أخباره . قال ابن خفاجة الأندلسى :

أما ترى الماءَ على وجههِ يجولُ ، والنارَ على وجنتيه
فوَجْهُهُ ريّانَ كطرفى بهِ وَخَدُّهُ وَقْداً كقلبى عليه

وقال :

تَرَقْرَقُ ماءُ مقلتىَّ ووجهُهُ ويذكو على قلبى ووجنتهِ الجمرُ

ولبعضهم :

أشكو الصَّدَى أبداً وما في الحسنِ فى خَدّيهِ جارِ

ومن الافتنان فى هذا الباب قول الآخر :

لم تَرِدْ ماءَ حسنكَ العينُ إلاّ شرقَتْ قبلَ ريِّها برقيبِ

وهل أتاك حديث « أفواه المنى » تترشف ذلك الماء ثُمَّتَ تصدر فلمأى وأنت تظنها رواء ؟ قال صاحب الريحانة :

ماءُ الجمالِ فى رياضِ خَدّها وِرْدٌ بأفواهِ المنى مُستعذبُ

ولابن خفاجة الأندلسى :

فكاد يَشربُ نفسى وكدتُ أشربُ خدَّهُ !

ومثله أو قريبٌ منه قول الآخر :

يكاد أن يشربه اذا تبدّى نظرى !

ونحن نختم هذا الباب ببيتين قيل إنهما للمهلّبى فى غلام تركى جعله معزّ الدولة قائد جيش سيّره لقتال بنى حمدان ، والشاهد فى قوله (يروق الماء فى وجناته) ، قال :

ظبيٌ يَروقُ الماءَ فى وَجَناتهِ ، وَيَروقُ عُودُهْ

جَعلوهُ قائدَ عسكرٍ ضاع الرّعيلُ ومن يَقودُهْ

قال صبرى :

جَرَّدتَ كلَّ مليحٍ من ملاحتهِ لم تتّقِ الله فى ظبىٍ ولا غُصنِ

فاستبقِ للبدرِ بَينَ الشهب رُتبتَهُ تَملِكهُ فى أوْجهِ عبداً بلا ثمنِ

الظبىُ والغصنُ والبدرُ ، أو الشمسُ حيناً ، هذا هو مَدارُ القول عند الأوّلين إذ يبالغون فى وصف الجمال . جاء صبرى بهذه المجموعة فى البيتين لكيلا يفوتَ شىء ، وليكون قوله فى البيت الأوّل (جردت كلَّ مليحٍ من ملاحتهِ) متناولاً كل ما يقع فى معناه ، أو يقوم تحت حكمه ، فلو لم يذكر البدر لاضطربت (كلّ) فى مكانها ، وفقدت الشطر الأكبر من قوّتها وسلطانها ، وما أظنّ البراعة فى وصف الجمال ، أو المبالغة فيه على وجه الاجمال ، قد فارقت بيت البحترى الذى يقول فيه :

أعطيتَ بسطةَ على الناسِ حتى هِىَ صِنفٌ ، والناس فى الحسن صِنفُ

ومن الشعر الجامع فى هذا الباب قولُ بعضهم :

كلُّ حُسنٍ فى البرايا فهوَ منسوبٌ اليك

وأبلغ من هذين قول عبدالله بن عبدالله :

سلمى : وما سلمى ؟ تفوقُ المُنى والحسنَ أوصافاً وألوانا

وللبحترى فى المجرى الذى تتبعه صبرى ، وهو عندى فى المحل الثانى :

فيهِمَ الشّمسُ بهجةً ، والقضيبُ ا . . . . مَضُّ ليناً ، والرّيمُ طرفاً وجِيدا

وله :

فى طلعةِ الشمسِ شىءٌ من ملاحتها وللقضيبِ نصيبٌ من تثنّيها

وقال مهيار الديلمى :

سلا ظبيةَ الوادى ، وما الظبيُ مثلها وإن كان مصقولَ الترائبِ أكحلا :

أأنتِ أمرتِ البدرَ أن يصدعَ الدُّجى وعلمتِ غصنَ البانِ أن يتميّلا ؟!

وهذان شاعران ، هذا يتهم موصوفه بالسرقة من الظبي والغصن ، وهذا يتهم الغزلان بالسرقة من موصوفه ! قال الأول وهو أبوالفتح بن عبد السلام المغربى :

سَرَقَ الجيدَ واللحاظَ من الظبي ، ولِينَ القوامِ من غُصنِ بانِ

وقال الثانى وهو القطب المكى :

ما أرَى الغزلانَ إلا سرقتْ منكَ جيداً والتفاتاً وَخَدَقْ

ثم خافت ، فتولت شُرّداً كيف لا يشردُ خوفاً مَنْ سرقْ ؟

أما ما قيل فى البدر وحده ومنزلته من الموصوف بالجمال من قبل أن يتناوله صبرى ويضمه فى ذلك المكان ، فهذا طرَفٌ منه ، قال عبدالله بن المعتز :

كِدْتُ أقولُ البدرُ شِبْهٌ لها أجعلها كالبدرِ ؟ حاشاها !

وقال الشيخ زين الدين بن الوردى :

وبى أغيدٌ من حُسنهِ البدرُ خائفٌ على نفسهِ ، والنجمُ فى الغَرْبِ مائلُ

نريد أن نقترب من غرض صبرى ، ففى هذا البيت أن البدر خائف على نفسه وترجمة هذه العبارة فى بيت صبرى (واستبق للبدر بين الشهب رتبته) أى انه خائف فاعطه الأمانَ ، فبقى أن يكون عبداً ، أو عبداً بلا ثمن ! واليك ما يقوله أحد الشعراء :

نفى النومَ عنى ، يا لقومى ، مهفهفٌ غلامٌ ، ولكنّ الهلالَ غلامُهُ !

لعلك تقول أين الغلام من العبد ، وهل الهلال كالبدر ؟ ليس لك أن تقول هذا ، ولكنى مواتيك فاذاكرٌ لك قول القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر :

وأنتَ تعظُمُ عندى أن يُمسىَ البدرُ عبدَكْ !

سنقول وأين موضع (بلا ثمن) من الشعر القديم ؟ الجواب عند البهاء زهير ، قال :

لكم الروحُ والبدنْ لكم الشرُّ والعلنْ
أنا عبدٌ ملكتمو هُ ، ولكنْ بلا ثمنْ !

قال صبرى من قطعة أخرى :

يا آسيَ الحيّ ، هل فتّشتَ فى كبدى ؟ وهل تبيّنتَ داءً فى زواياها ؟
أوّاهُ من حُرَقٍ أودتْ بمعظمها ولم تزل تتمشّى فى بقاياها

يقال فتّش الشيء وفتّش عنه ، فقوله (فتشت فى كبدى) خطأٌ لغوى ، وقد ورد هذا الفعل على وجهه الصحيح فى غير ما موضع من الشعر ، قال المتنبي :

طلبتهمُ على الأمواهِ حتى تخوّفَ أن تُفتّشَهُ السحابُ

وقال أبو الحسن التهامى :

وربما فتّشتَ بعضَ عطائهِ فوجدتَ فيهِ الصيّدَ البُهلولا

ولأحد الشعراء :

يا ويحَ قلبٍ ما خلا من شُغلهِ بصبابةٍ ومحبّةٍ مُذ كانا
لو فتّشوهُ ، لما رأوا لسوى الهوى فيهِ ، ولا غيرِ الغرامِ مكانا

وفى هذه الزوايا التى ذكرها صبرى يقول البهاء زهير :

ويَميلُ بى نحوَ الصِّبى قلبٌ رقيقُ الحاشيه
فيه من الطَّربِ القديـ ..... ـمِ بقيّةٌ فى الزاويه

ولناصح الدين الأرّجانى :

تأمّلْ تحت ذاك الصُّدْغِ خالاً لِتعلمَ كم خبايا فى الزوايا !

فأمّا تلك البقايا الواردة فى البيت الثانى فحسبك من قديم ذكرها ما نسوقه اليك ، قال الشاعر :

وما أبقى الهوى والشوْقُ منى سوى رُوحٍ تَرَدّدُ فى خيالِ

وقال آخر :

لم يُبقِ من كبدى شيئاً أعيشُ بهِ طُولُ الصّبابةِ ، والبيضُ المطابيلُ

ولأبى بكر بن دريد :

انّ الذى أبقيتَ من جسمهِ يا مُتلفَ الضبِّ ، ولم يَشعرِ
صُبابةٌ لو أنّها قطـــــرةٌ تجولُ فى جفنيكَ لم تَقطُرِ

وقال البهاء زهير :

لك الحيـــاةُ فانى أموتُ لا شكَّ عِشقا
لم يبقَ منىَ الاّ بَقيَّةٌ ليس تبقى

وقال :

لم يَبقَ غيرُ حشاشةٍ مِن مهجتى ، وأخافُ أنْ لا !

وما أكثر الشبه بين البيت الثانى من هذه القطعة وبين قول المتنبى يذكر خروجه من أرضٍ قطعها :

حتى وصلتُ بنفسٍ مات أكثرُها ولينى عِشتُ منها بالذى فَضَلا

لشاعرنا الكريم أبيات من جيّد شعره فى معنى الوداع ناجى فيها قلبه ، لايدرى أهو إن حُمّ الفراق ناصره ، أو هو مُسْلِمُهُ فخاذله ، ووَصَفَ ساعةَ البين بعصف بالأحباب ، وأنها قطعةٌ من العذاب ، وأنت تراه يجود بروحه فداءً لمن يرفق به فيمحو هذه الساعة الشديدة الهول من صحيفة المقدور ، قال :

أتُرَى أنتَ خاذلى ساعةَ التو ديعِ يا قلبُ فى غدٍ ، أم نصيرى؟
وَيْكَ قُلْ لى متى أراكَ بجنبى راضياً عن مكانك المهجورِ ؟
ساعةَ البينِ ، قِطعةٌ أنتِ قُدَّتْ للمحبّينَ مِن عـذابِ السعيرِ
لا تَحينى - رُوحى الفداءُ لِمَاحِي . . . . كِ غداً من صحيفةِ المقدورِ

يناجى الشاعر قلبه فى البيت الأول مناجاة الحاضر معه ، ثم ينظر فلا يراه ، وينصت ليسمع جوابه فلا يجد سوى صداه ! هو فى البيت الثانى غائب عن مكانه المهجور لا يعطف عليه ، ولا يرضى عنه فيرجع اليه — هذا هو التدلّه ، وانّه لشفيعٌ ووجيهٌ لمن يُصاب به فيخالف هواك ، أو يعدل بك عن السبيل ، هو التدلّه ، فان أبيتَ فهو التلاعب البيانى ما للشاعر المتصرّف فى فنون الكلام منه بُدٌّ ، ولا لك عليه من سلطان وهو يأخذك به — أفاق صبرى بعد البيت الأول من ذلك التدلّه ، أو هو قد جرى على منهاجه فى هذا التلاعب ، فاذا به يسأل قلبه

منى أنت راجع ؟ وما تصنع القلوب والجنوب بلاقع ؟ جرى صبرى فى هذا على سُنّة الأولين ، فوضع قلبه بين قلوبهم ، وضمّ جنبه الى جُنوبهم ، وهذا هو المتنبى يقول :

أتظعنُ يا قلبُ مَعْ مَن ظعنْ ... حَبيبينِ ؟ أندُبُ نفسى إذنْ !
وَلمْ لا تُصابُ ، وحربُ البسو ... س بَينَ الجفونِ ، وبينَ الوسنْ ؟!
وهل أنا بَعدكما عائشٌ ... وَقد بانَ قلبى ، وبانَ السكنْ ؟

وللأبيوردى :

ظعنوا ، فما لكَ لا تفارقُهم ... يا قلبُ إن ظعنوا ، وإن حطّوا ؟

وما أشبه صبرى بابن ميّادة إذ يقول :

فوالله ما أدرى ، أيغلبنى الهوى ... إذا جَدّ جِدُّ البينِ ، أم أنا غالبهْ

وفى معنى البيت الثانى يقول صفىّ الدين الحلى :

هَجرتْ بَعدكَ القلوبُ الجسوما ... حين أمست منك الدّيارُ رُسوما

وأقربُ من هذا الى غرض صبرى قول ابن المعلّم :

سألتْ جِسمىَ عن ساكنهِ ... ومِنَ الجهلِ سُؤالُ الطَّلَلِ

ومما يُنسب الى غردد الموسوس :

فلما تولّوْا ولّتِ النّفسُ فيهمُ ... فقلتُ ارجعى قالت : إلى أين أرجعُ ؟
إلى جَسَدٍ ما فيهِ لحمٌ ولا دمٌ ... وما هو الاّ أعظُمٌ تتقعقعُ

وللبوريني :

مَنازلُ هذا القلب كانت أواهلاً ... وما هى من بَعدِ الفراقِ طُلولُ !

فأما ساعة البين وانها قطعة من العذاب أو أشدّ ، فمن الشائع المتواتر ، ومنه قول أبى بكر الزبيدى :

ما خَلقَ اللهُ من عذابٍ ... أشدّ من وقفةِ الوداعِ !

وقول أبى تمام فى الأبيات الثلاثة :

أما الهوى فهو العذابُ فانْ جرتْ ... فيهِ النوى ، فأليمُ كلّ أليمِ

* * *

قالوا الرحيلُ فما شككتُ بأنها نفسي عن الدُّنيا تريدُ رحيلا

* * *

أظلَّهُ البينُ حتى أنه رجلٌ لو مات من شغله بالبين ما علما !

وقال احمد بن عبد ربه :

يا سقيمَ الجفونِ من غير سقمٍ بين عينيكَ مَصرعُ العشّاقِ
انّ يوم الفراقِ أصعبُ يومٍ ليتني متُّ قبلَ يومِ الفراقِ

ولبعضهم :

والله ما فارقتهم لكنني فارقتُ قلبي

وللبهاء زهير :

أنتَ الحياةَ ومَن تفا رقهُ الحياةُ فكيف حالُهُ؟!

في البيت الرابع من أبيات صبرى معنى يبدو كأنه طريف ، فهو يبذل روحه أو (جائزة) لمن يمحو ساعة الفراق من صحيفة المقدور ، وعلى هذا الوجه فهو يؤثر أن يموت قبل أن تحين هذه الساعة ، وهنا يلتقي هو واحمد بن عبد ربه في قوله (ليتني متُّ قبلَ يوم الفراق) ويبقى له بعد ذلك محو الساعة من الصحيفة ، واقتطاعها من الغد أو من الزمن ، وهذا شاعر قديم يجاوز هذا الحدّ فلا يريد الا أن يزول الغد كله من مجموعة الدهر وجريدة الايام ، قال :

قالوا الرحيلُ غداً ، عدمتكَ يا غدُ !

ومن الصُّوَرِ الواردة في هذا الباب قول البحترى :

يا يومُ عرّجْ ، بل وراءكَ يا غدُ قد أجمعوا بيناً ، وأنتَ الموعدُ

ومنها قول كلثوم بن صعب ، والشاهد في البيت الثاني :

دعِ داعيَا بينٍ ، فمن كان باكياً معي مِن فراق الحي ، فليأتني غدا
فليتَ غداً يومٌ سواه ، وما بَقى من الدّهر ليلٌ يحبسُ الناسَ سرمدا
لِتبكِ غرانيقُ الشبابِ فانني إخالُ غداً من فرقةِ الحيِّ موعدا

وهذه صورة أخرى في آخر لابن المعتز ، قال :

طوّلَ في أيلولَ شهرُ الصيامْ وما قضينا فيهِ حَقَّ المدامْ

والله لا أرضى عن الدهر ، أو يسرق شهرَ الصوم فى كل عامْ!

فأنت تأخذ من جملة هذه الصور أن صبرى لم يبتدع شيئاً فى أمر ذلك المحو الذى أراده ، وهو جهدُ مارمى اليه فى تلك القطعة ، وأحب أن يذكر له ويؤثر عنه . وهذه قطعة أخرى من شعره ، قال :

تمسى تذكرنا الشبابَ وَعهدَهُ حسناءُ مُرهفةُ القوامِ فنذكرُ
هيفاء أسكرها الجمالُ ، وبعضُ ما أوْفَى على قدرِ الكفايةِ يُسكرُ
تَنِيبُ القلوبُ الى الرموسِ ، إذا بدت وتُطِلُّ من حَدَقِ العيونِ وتنظرُ
وتبيتُ تكفرُ بالنُّحورِ قلائدٌ فاذا دَنَتْ مِن نحرها تستغفرُ
وتزيد فى فيها اللآلىءُ قيمةً حتى يسودَ كبيرَهنَّ الأصغرُ

تأنّق الشاعر فى صياغة هذه القطعة الفنية الرائعة وتلوينها ، واستعان على تأدية أغراضه فيها بأسبابٍ لطافٍ ، ووسائلَ ما فى براعتها وحسن اتساقها من خلاف ، وانما يتمشّى النقد فى هذه القطعة على الأغراض والمعانى ، وإن كان قوله (هيفاء) فى البيت الثانى بعد قوله (مرهفة القوام) فى البيت الأوّل من فضول الكلام ، وما أرى البيت الأ صورة من قول المتنبى :

وفتّانةِ العينين ، فتّالةِ الهوى إذا نَفحتْ شيخاً روائحُها شبّا

ولقد بدأ الشاعر القطعةَ بتذكّر الشباب وعهده ، ومابرح هذا التذكر يستطير رنينه فى أشعار الماضين ، ويتجاوب صداه فى نفوس المتأدبين ، قال منصور النمرى:

ما تنقضى حسرةٌ منّى ولا جزَعٌ اذا ذكرتُ شباباً ليس يُرتجعُ

وقال المرّى :

ولقد سلوتُ عن الشبابِ كما سلا غيرى ؟ ولكن للحزين تذكّرُ

وهذا من الأغراض العامّة والمواطن المباحة ، وليس فى هذا البيت من الصُّوَر الفنّية الخاصّة أو المعانى المولدة ، ما هو من النظر بموضع أو من النقد بسبيل ، وموضع ذلك فى البيت الثانى حيث يقول الشاعر (هيفاء أسكرها الجمال) وما أبرح ما لاقت النفوس من هذا الشراب الذى أسكر الشعر والشعراء ، فألهمه اغنيّةَ الحبّ ، وعلمهم كيف يردّدون أنغامها الروحية الصافية على معازف الفن . قال البحترى فى معنى ذلك السّكر :

ويومَ تثنّت للوداع ، وسلّمت بعينين موصولٍ بلحظهما السّحرُ
توهّمتها ألوى بأعطافها الكرى كرى النوم ، أومالت بأعطافها الخمرُ

وقال المتنبي :

وغضّ من الادلال، سَكْرَى من الصِّبى شفعتُ اليها من شبابي بريّقِ

ومن قول ابن هانى :

منعوكِ من سِنَة الكَرَى، وسَرَوْا ،فلو عثروا بطيفٍ طارقٍ ظنوكِ
ودَعَوْكِ سَكْرَى، ماسَقَوْكِ مدامةً لمّا تمايلَ عِطفُكِ انّهمـــوكِ !

ولبعضهم :

يرنحها سُكرُ الشباب ، فتنثنى كما اهتزّ ممطورٌ من الأيكِ مائدُ

وزاد جمال الدين بن مطروح على كل هذا فقال :

نشوانُ ، ما شِرَبَ المدامَ ، وانما أضحى بخمرِ رُضابهِ مُتنبّذا

قال صبرى فى البيت الثالث :

تقبُ القلوبُ الى الرؤوسِ ، إذا بدتْ وتُطِلُّ مِن حَدَقِ العيون وتنظرُ

حدّد الشاعر مرمى تلك الحركة التى تأخذ القلوب اذا بدت موصوفته بقوله (تُطلّ وتنظر) وهذا معنًى فاسد ، لأن القلب لا ينظر من العين ، ولسنا فى مقام البحث العلمى ، فحسبنا شهادة الشعر ، قال بشّار :

يزهّدنى فى حُبّ عبـــدةَ مَعشرٌ قلوبهم فيها مخالفـــةٌ قلبي
فقلتُ دعوا قلبي وما اختارَ وارتضَى فبالقلبِ لا بالعينِ يُبصرُ ذو اللبّ
وما تُبصرُ العينان فى موضعِ الهوى ولا تَسمعُ الأُذنان الاّ مِن القلبِ

فان قيل إن بشّاراً أعمى ينتصر لنفسه ، فهذه أقوال طائفة من المبصرين حاول المعرّى أن يتعلق بها فنفيناه ، قال الشريف الرضى :

إذا توجّسَ كان القلبُ ناظِرَهُ والقلبُ ينظرُ ما لا ينظرُ البصرُ

أغار عليه البهاء زهير فقال فى المعنى :

إنى عشقتك ، لا عن رؤيةٍ عَرَضَتْ والقلبُ يُدركُ ما لا يُدركُ النّظرُ
فتنتُ منكَ بأوصـــافٍ مجرّدةٍ فى القلب منها معانٍ ما لها صُوَرُ

وقال حسن بن محمد البوريني من شعراء الريحانة :

أحوّلُ وجهي حين يُقبلُ عامداً مخافةَ واشٍ بيننا ورقيبِ
وفي باطني — واللهُ أعلمُ — أعينٌ تُلاحظُهُ في أضلعٍ وقلوبِ

ولصاحب الريحانة :

وَتنظرُهُ مني قلبيَ الصبُّ أعينٌ عليها لِتَخشَى الضلوعِ حواجبُ

ولِمَ هذا كلُّه ؟ أما كان كافياً أن يقال (قلوبُ العاشقين لها عيون ؟) ولقد أبصرت القلوب التي جعلها صبري تثب الى الرؤوس بشهادته هو ، وليس بعد هذا كله من دليل على فساد المعنى الذي جاءنا به ، وانظر مايقول أحمد الكيواني الشاعر الدمشقي في المأخوذين بسلطان الجمال :

قلوبهم كلُّها عيونٌ وكلُّ أجسامهم قلوبُ !

لو أنصف صبري لأعفى القلوب من ذلك الوثوب ، أو لأطلقها من تلك القيود التي احتجزتها وراء العيون ، ولسنا نكتم شهادة ذلك الشاعر الذي يُوهم قوله أن شاعرنا على شيء من الصواب ، وهذا ما لا يكون إلاّ على أضعف وجوه التأوّل وأدقّ مدارج الاستنباط ، ذلك هو شهاب الدين بن رضوان الغرناطي ، قال :

يا مَن اختار فؤادي سكناً بابُهُ العينُ التي ترمقهُ
فتحَ البابَ سُهادي بمدمٍ فابعثوا طيفكمُ يغلقهُ !

جعل العين باب القلب ، وهذا وصفٌ صحيح في أكثره وهو يحتمل مجوّزاً أن يقال إنّ وثوب القلوب الى الرؤوس لتطلّ من حدق العيون وتنظر اتماهو في حكم من يرى أمام داره منظراً حسناً أو غير حسن من المناظر التي تثير النفوس فيهرع الى الباب لينظر عن قرب ، ولكن هل يستقيم هذا المثل والوصف جارٍ على القلوب ؟

تلك إحدى الصورتين ، فأما الأخرى فحركة القلب في ذاتها وصلتها بالشعر القديم ، وليس من هذه الصورة ما قيل في القلوب تطير شوقاً أو فزعاً ، ولكنّ منها قول أبي تمام :

تَمشتْ قلوبُ أناسٍ في صُدورهم لمّا رأوكَ تُمشّي نحوهم قدَما

البيت في معنى الفزع ، ولكن حركة القلوب فيه أشبهُ بها في بيت صبري ، فهي تمشي هنا وتثب هناك ، وبين المشي والوثب ما ترى من تجاور وقرب . ومن هذا النوع قول المتنبي :

أصبحَ حُسّادُهُ وأنفسُهم يُجدرُها خَوفُهُ ويُصعدها

وقوله فى الخيل :

تُجاذبُ فرسانَ الصباحِ أعنّةً كأنّ على الأعناقِ منها أفاعيا
بعزمٍ يَسيرُ الجسمُ فى السرجِ راكباً به، ويسيرُ القلبُ فى الجسمِ ماشيا

ومنه قول ابن المعتزّ يمدح :

فما ليثُ غابٍ يسلبُ الجيشَ بأسَه بمشيةِ وثّابٍ على النمرِ والزحر

الى أن يقول وهو الموضع :

بأجرأ منه حَدَّ بأسٍ وعزمةٍ اذا ما ارتقى قلبُ الجبانِ الى النحرِ

وهذه صورة أخرى من قوله تكشفُ لك عن انجاهٍ آخر لهذا النّوع الذى نراه ممثلاً واضحاً فى بيت صبرى ، قال :

لو تستطيعُ قلوبُهم نفذتْ أجسامَهمْ ، فتعانقتْ حُبّا

قال صبرى :

وتبيتُ تكفرُ بالبخورِ قلائدٌ فاذا دنتْ من نحرها تستغفرُ

هذا ولا خفاء معنى دقيق هو من أبعد أسرار الفن غوراً ، وأشدّها تعذراً وامتناعاً ، تناوله شاعرنا القدير فصوّر لك فيه كفر القلائد واستغفارها ، ولك أن تقول إن الكفر لا يمحى بالاستغفار ، وأن الايمان هو المطلوب فى هذا المقام ـ ذلك من أحكام القول وشرائطه ، وما بك من شطط حين تقولها ، ولكن دع هذا ناحية ، واذهب صُعُداً فى معنى البيت ، انك من هذا فى المطلب الأجل والشأن الأعظم ، أنت منه بين صورتين دقيقتين : صورة الكفر وصورة الاستغفار ، ولعلك تحزن معى لمجيء هذه الآية الفنية الرائعة بعد قول مهيار :

كفرتْ وُجوهَهمُ البدورُ وآمنت لأكفهم أيدى السحابِ، فكفّرتْ

جاء مهيار بالكفر والايمان معاً ، وجاء به وبالعقوق جميعاً أبو بكر ابن القوطيّة الاندلسى إذ يقول فى السوسن والورد :

كأنما ارتضعا خَلْقَىْ مهاتهما فأرضعتْ لبناً هذا ، وذاك دما
جسمانِ قد كفرَ الكافورَ ذاك وقد عقَّ العقيقَ احمراراً ذا ، وما ظلما

نتعلم من هـذا أن الكفر قديم فى باب المفاضلة بين الأشياء ، فما هو من شاعرنا ببدع ، وإنا لنرى حُسناً كثيراً فى قوله تستغفر على أنها كلمة مستقلة لا يحكمها ضابط ولا يسيطرُ عليها نظام ، وما هـذا الحسن الكثير إلا ترجمة همس الحلى ووسواسة تلك الترجمة البديعة فاذا أنت منها فى لغة فصيحة ، واذا الاستغفار قائم فى هذه اللغة ، وفى هذا الهمس أو الوسواس ، يقول العجاج :

تَسمعُ للحَلْىِ إذا مَا وَسْوَسَا والنَّجَّ فى أجيادها وأجْرَسَا
زفزفةَ الرِّيحِ الحَصادَ اليبِسا

ويقول حاتم الطائى :

إذا انقلبتْ فَوْقَ الحشيّةِ مَرَّةً تَرَنَّمَ وَسْوَاسُ الحُلىِّ تَرَنما

وقد جرى أبو تمام والبحترى فى هذا المضمار على غِرارَيْهما من حيث الصناعة ، فقال الأوّل :

وإذا مشتْ تركتْ بقلبكَ ضِعفَ ما بِحُلِيِّهَا مِن كثرةِ الوسواسِ

وقال الثانى :

إذا هِجْنَ وسواسَ الحُلىِّ تولّعتْ بنا أريحيّاتُ الجوى والوساوسِ

وأخذ شهاب الدين الحاجبي معنى بيت أبي تمام فقال (حَلْىٌ يُوسوسُ فى صدور الناس) وأكثرُ اللفظ من القرآن الكريم على طريقة الاقتباس ، ذلك هو الاستغفار عند شاعرنا ، غفر الله له وأحسن اليه ، قال :

وَتزيدُ فى فمها اللآلىءُ قيمةً حتى يَسودَ كبيرَهُنَّ الأصغرُ

معنى حسن ، ولكنه غير جديد ، قال ابن النبيه :

وما كُنتُ أدرى قبل اؤلؤ ثغرها بأنّ نفيساتِ اللآلى صغارُها

ومما أعمل فيه شاعرنا فكره ، وراضه من الأغراض والمعانى قوله :

ولمّا التقينا قرّبَ الشوقُ جُهْدَهُ شجيَّينِ فاضا لوعةً وعتابا
كأن صديقاً فى خلالِ صديقهِ تسرّبَ أثناءَ العناقِ وغابا

يفيض لوعة ، أو يذوب شوقاً ، أو ما كان من هذا بمنزلة ، انما هو من أنضاء القول ، وأخلاق الكلام ، وقد وصفوا الشكوى والعتاب بالرقة ، وأفرغوا عليهما

صفةَ الدّوبان ، فجاء شاعرنا يُجرى هذا الوصف على الأشخاص ، والمتحوّل سهل والمسافة قريبة . وقد تناول أبو تمام رقة الشكوى فقال :

كادت لعرفانِ النّوى ألفاظُها ... مِن رقةِ الشكوى تكون دموعا!

وقال آخر :

لو كُنتَ ساعةَ بَينِنا ما بَيْنَنَا ... وشهدتَ كيف نُكرّرُ التوديعا

أيقنتَ أن من الدُّموعِ محدّثاً ... وعلمتَ أن مِن الحديثِ دموعا!

ومما ينسب إلى جحظة البرمكي :

ورَقَّ الجوُّ حتى قيلَ هذا ... عِتابٌ بَينَ جَحظةَ والزّمانِ!

نريد أن ننظر الى اللغة فى البيت الثانى قبلَ أن نلمس المعنى ، ونحن نرى أن فى قول الشاعر «خلال صديقه ، وأثناء العناق» موضعاً للتأمل ، فخلال لُغة منفرَج ما بين الشيئين ، وهى من الديار ما حوالى حدودها وما بين بيوتها ، ومن السّحاب مخارج الماء ، ولسنا نجد بين هذه الصّور صورة واحدة تُلائم ما ذهب اليه صبرى فى ذلك الوصف حتى مع قوله انّ الصديقين قاضا وقوله تسرّب ، وقد جعل أثناء ظرفاً فجرى فى ذلك على طريقة العابثين باللغة من جماعة الكتاب ، وأثناء الشيء قُواه وتضاعيفه وطاقاته ، وَاحدها ثِنْيٌ ، والسبيل أن يقال فى أثناء ذلك ، أى فى غضونه أو فى فترةٍ منه ، وقد قرأت فى مجموعة شعر صبرى للأديب المعروف (محمد صبرى) أن أديبنا الكبير السيد مصطفى صادق الرافعى يردّ المعنى القائم فى هذا البيت الى قول بشار :

فبتنا ولو أنا نُراقُ زجاجةٌ ... من الخمرِ فيما بَيننا لم تَسرَّبِ

وأنه يُنكر صورة هذا العناء يجرى بين صديقين ، وبعد أن خالفه صاحب المجموعة فيما ذهب اليه قال إن صحّ أن هذا المعنى مأخوذ من أحد وجب ردّه إلى (مونتين) الفيلسوف الفرنسى الذى قال فى موقف عناق (وما كنت أدرى أكان هو أم أنا) !

صدق الأديب (محمد صبرى) فيما تحدّث به من بُعد العلاقة بين بَيتَىْ صبرى وبشار ، فليس المعنى واحداً فيهما ، وأصحُّ ما يقال أن بيت بشار يمهد للمعنى الذى أفرغه صبرى فى ذلك البيت ويهيء له الخاطر ، وأكثرُ منه تمهيداً له

وإعانةً عليه قول ابن الرومى :

أُعانقهُ والنفسُ بعدُ مشوقةٌ إليهِ ، وهل بعدَ العناقِ تَدانِ ؟
وألثمُ فاهُ كى تزولَ حرارتى فيشتدّ ما ألقى مِن الهيمانِ
كأنّ فؤادى ليس يَشفى غليلَهُ سوى أن يرى الرُّوحين يمتزجانِ

وقد أنكر الأديب محمد صبرى على الرافعى ما أثاره من الشبهة حول ذلك العناق ولكنه لم يدفع هذه الشبهة التى ما تزال قائمة بشاهد لغوىّ أو دليل شعرىّ ؛ فكان معنى ذلك أنه لا يرى مانعاً من وقوع العناق بين الصديقين - من الرجال - على الصورة الواردة فى البيت ؛ وليس هذا هو الوجه ، فالصديق صفة تطلق على المرأة كما تطلق على الرجل ، ومن ذلك قول جميل :

كأنْ لم تحاربْ يا بثينَ لو انها تَكشّفُ غُمّاها وأنتِ صَديقُ

وقول ابن المعتز :

برغمِ البينِ ، لا صارَمْتُ شِرّاً ولا زالتْ وإنْ بَعدتْ صديقا

فأمّا أن الشعر العربى خالٍ من ذلك المعنى ، وأنه اذا كان صبرى قد سُبق اليه فلا يكون سابقه سوى ذلك الفيلسوف الفرنسى — أمّا هذا فبعيدٌ عن الحق والصواب ، وهذه طائفة من الشواهد : قال ابن المعتز ، ونسبه بعضهم الى خالد الكاتب :

كأنى عانقتُ ريحانةً تنفستْ فى ليلها البارد
فلوْ ترانا فى قميصِ الدُّجى حسبتنا فى جَسَدٍ واحدِ

وقال ابن عبدوس :

لا ، والمنازلِ من نجدٍ وليلتنا بُعَيْدَ إذ جَسدَانا بيننا جَسَدُ
كم رامَ فينا الكرى من لطف مسلكه عيناً ، فما انفكّ لاكفٌّ ولا عضدُ

وقال ابن بشر الكاتب :

ولم نزلْ ، والظلامُ حارسُنا جسمينِ مُستَوْدَعَينِ فى جِسْمِ

ولابن عبدون :

وما أنسَ ليلتنا والعناقُ قد مزجَ الكلُّ منّا بكلّ

وهذا صالح بن موسى يستعين بالحمى على تصوير هذا المعنى بلونٍ آخر فيقول :

لى سيّدٌ ما منله سَيِّدٌ تصدّت الحمّى لهُ فاشتكى
عانقتهُ عند موافاتها فلم تجدْ ما بيننا مَسلكا !

أبَعْدَ هذا كله يقال إن المعنى غريب عن الشعر العربى ، وانه لا شبيه له الا فى قول صاحبنا الفرنسى (وما كنت أدرى أكان هو أم أنا ؟) فأين كان الأديب محمد صبرى مِن كل هذا ؟ بل أين هو مِن قول الشاعر :

أنا مَن أهوى ، ومَن أهوى أنا نحن روحانِ حللنا بَدَنَا

وقول الآخر :

بكمُ اتحدتُ هوًى، فلوْ حييتُكم قلتُ السلامُ علىَّ إذ أنتم أنا

لا أخشى أن أتهم بالمغالاة فى تلمّس المآخذ إذا أنا اتخذت ناحيةً أخرى فى هذا المجرى وزعمت أن المعنى الذى أتتبّع مواقعه وأتمثل صوره قد يتيسر انتزاعه من هاتين الصورتين على ما بينهما وبينه من بُعدٍ فى ظاهر الحال ، وهذه إحداهما ، قال الشاعر :

وتحدّرتْ مِن كأسه فى ثغرهِ كالشمسِ تغربُ فى هلالٍ من قرِ

فأما الثانية فقولُ الآخر :

أقولُ والكأسُ على فيهِ قد تصوّبت كالكوكبِ الثاقبِ
ذا كوكبٌ يغربُ فى كوكبٍ ويلى على الطالعِ الغاربِ !

لم يذكر صبرى أىّ الصديقين تسرّب فى الآخر ، فجاء الوصف على هذه الصورة مشوّشاً ، بل هو يوهم أن هذين الصديقين شخصان آخران غيره هو وصاحبه ، واذاً تكون الصورة وصفية محضة ، أى أنها لا تفيد معنى الأمر الواقع على حدّ ما أراده الشاعر .

قال صبرى فى معنى عقوق الاخوان والبُقيا عليهم :

اذا خاننى خِلٌّ قديمٌ وعقنى وفوّقتُ يوماً فى مقاتلهِ سَهمى
تعرّضَ طيفُ الودّ بينى وبينه فكسّرَ سهمى ، فانثنيتُ ولم أرمِ !

المعنى غير مستقيم فى البيت الأول لما اشتمل عليه من الخطأ اللغوى فى قوله « وفوّقت فى مقاتله » إذ معنى فوّقَ السهمَ جعل له فُوقاً وهو موضع الوتر منه ، وقد أتى الشاعر بهذه الكلمة فى موضع سدّدتُ أو صوّبتُ ، والحكم فى ذلك أن يقال إلى مقاتله ، لا فيها ، فالخطأ ظاهر ، وهو آتٍ من طريق الوهم ومجانبة التثبّت ، وعندى أنّ تعرّض طيف الودّ فى البيت الثانى مما يستفاد من قول البحترى :

حبيبٌ نأى ، إلاّ تعرّضَ ذكرةٍ ... لهُ ، أو مُلمّ طائفٍ من خيالهِ

وفى معنى البيتين يقول الشريف الرضىّ يعاتب أخاه :

تهضّمنى مَن لا يكون لغيرهِ ... مِنَ الناس إطراقى على الهُون أو غَضّى
أُفوّقُ نبلَ القولِ بينى وبينهُ ... فيؤلمنى من قبل نَزْعى بها عِرضى
وأرحمُ لم أُوليغْ لسانىَ فى دمى ... ولى أدمٍ أعضانى بنهشى ولا عضّى
شفعتُ إلى نفسى بنفسى ، فكفكفتْ ... من الغيظ واستعطفتُ بعضى على بعضِ

ولآخر فى المعنى :

فداوتهُ بالحلمِ ، والمرءُ قادرٌ ... على سهمهِ ما دامَ فى كفّهِ السّهمُ

وقال أبو عبد الله بن الفخّار المالقى :

إذا ما خليلٌ نبا مرّةً ... وقد كان فيما مضى مُجمِلاَ
ذكرتُ المقدّمَ من فعلهِ ... فلم يُفسدِ الآخرُ الأوّلا

وللشريف الرضى فى معنى التعرّض :

وإن ناكرتنى خِلّةٌ من خلالهِ ... تعرّضَ قلبى يفتديها من الحقدِ

الأمير (عمر طوسون)

لشاعرنا الكبير قصيدة وجّهها إلى صاحب السموّ الأمير (عمر طوسون) أيام الحرب البلقانية بين تركيا القديمة ودولة اليونان ، يذكر فيها مجدته العالية ، وهمته المأثورة ، قال فى مطلعها :

لك الامارةُ ، والأقوامُ ما برحتْ ... بكلّ عالى الذُّرى فى الكونِ تأتمرُ

يقال ائتمر الأمر امتثله ، وبه أمَرَ نفسه ، وائتمر فلاناً شاوره ، وبفلان هَمَّ به ، ومنه فى القرآن الكريم (إنَّ الملأَ يأتمرون بك) ولم يرد ائتمر به بمعنى اقتدى أو اتَّبع أمره ، فالاستعمال فاسد فى البيت كما ترى ، والمعنى قريب من قول لبيد فى معلَّقته :

ولكلِّ قومٍ سُنَّةٌ وإمامُها

وبعد هذا يقول صبرى :

لو لم تَرِثْها لما ألقتْ أعنَّتها إلاَّ إليكَ خِلالٌ كلُّها غُرَرُ

غريبٌ تمنِّى الشاعر فى هذ البيت الخادع ، والحقُّ أنه قد خُدِعَ فى إيراده على على هذا الوجه ، إذ كان مراده القول إن الأمير حفظه الله جمع بين الامارة التى ورثها عن بيته العظيم وبين العظمة الخاصة المستفادة من اجتماع خلال الخير والمعروف فيه فأخطأ المراد ، وفصلَ بين الموروث والمكتسب على وجه التفريق ، فجعل الأوَّل قائماً ، وترك الثانى معلقاً ، وانظر إلى الشريف الرضى إذ يُفصح عن هذا الغرض بقوله :

قد زاده اللهُ على عظم الخطرْ مكارماً ذات حُجولٍ وغُررْ

ومن قوله فى هذا المعنى :

لو لم يكن عالى الأصول ، فقد وَفى شرفُ الجدودِ بسؤددِ الأحفادِ

الجدود جمع جدّ ، وهو الحظ والاقبال والعظمة ، ولأبى تمام فى معنى البيت على الوجه المستقيم :

وهل يُساميكَ فى العلا ملكٌ صَدرُكَ أولى بالرحبِ من بلدهْ ؟
أخلاقُكَ الزهرُ دون رهطك أنْ ... رَى منه فى رهطه وفى عددهْ !

نعلم من هذا أن شاعرنا لم يُرزق التوفيق فى هذا البيت ، وانه أخذ المعنى من الأقدمين ، قال :

يا ابن الألى لو أنطقوا بين مضاجعهم يوماً عليك ، لقالوا : إيهِ يا عمرُ !
أعدتَ أيامهم فى مصر ثانيةً حتى توهَّمَ قومٌ أنهم نُشروا
ومرتَ سيرتَهم ، حتى كأنهمُ اذا خطرت بارضٍ مرَّة خطروا!

معنى البيت الأول مأخوذ من قول الشريف الرضيّ فى الملك بهاء الدولة :

لو أن عينَ أبيك اليوم ناظرةٌ تعجّبَ الأصلُ مما أثمرَ الطرَفُ !

ويصحّ أن يُردّ الى قول أبى تمام فى محمد بن يوسف الثغرى :

رَأىُ الخليفتين ألقحَ الأمورَ به مَنْ ألفحَ الرأىَ فى يوم الوغى نَتجا

لو عايناك ، إذنْ قالا ، وما ظلما أبرحتَ ، أيْسَرُ ما فى العرق أن يَشِجا

وللشريف الرضيّ فى معنى البيتين الثانى والثالث :

رأيتُ فتى فى كفهِ همةُ الندى وفى وجههِ شبهٌ من الأبِ والجدّ

إذا ما احتبى فى الحيّ وامتدّ باعُه رأيتَ أباه حين يحكم أو يُجدى

وقد وقع هذا المعنى فى صور أخرى منها قول ابن نباتة المصرى :

ظعن الكرامُ الأوّلون وأقبلت أيامُهم ، فكأنهم لم يظعنوا

وفى شرف الأبناء يقول البحترى ، وهو أوسع معنى وأبعد أثراً :

وكم أنافت من الأبناء مكرمةٌ مشهورةٌ ، تدعُ الآباءَ حُسّادا

قال صبرى :

لله درّك ، كم نبّهتَ من هِممٍ تُثنى على أهلها الآصالُ والبُكرُ

وكم تعهّدتَ جَرحَى من أسود وغًى إن يَكشرِ الدهرُ عن أحداثه كشروا

ليس فى البيتين معنى جديد أو أثر للنشاط الفكرى الذى يجب أن يثور ويطرد فى النفس الفنية الطامحة : فلله درّك ، وأسود وغًى ، ويكشر الدهر ، كل هذا من الصور التى ذهبت نضارتها مع الذاهبين الأوّلين ، فاذا لم يكن بدٌّ من استعمالها وجب أن يكون الى جانب كلّ صورة منها شىء جديد من المعانى المولدة ، والأغراض الفنية التى تخرجها من دائرة الجمود الى دائرة أخرى من الحركة والتصرف . وما أبعد ما بين قول الشاعر — كم نبهت من همم — وبين بقية البيت الأول ، فالسّياق الفنى مُعطل فى هذا البيت على أنكر الحالات وأسوأ الوجوه ، والوحدة المعنويّة التى كان ينبغى أن تقوم فيه وتنهضُ به لا موضع لها ولا وجود ، وليس الشعر أن تأتى بصورة الفعل أو هيئة الحال جامدة كثيفة منقطعة الصلة عمّا بعدها من الكلام كقوله : نبهت من همم ، بل عليك أن تُرينى كيف تهبّ هذه الهمم من رقادها ، وكيف كانت وهى نائمة ، فى صورة فنية رائعة ، لأعلم

أنك شاعر وأنك تقول شعراً ، فأما أن تقول لى — تُثنى على أهلها الآصال والبُكر — فانصرافٌ عن الشأن ، وخلطٌ سيءٌ بين ضرب وآخر من ضروب الكلام ، قال :

مُستنجداً من بنى مصرٍ أُولى شيمٍ ... اذا رأوا ثلمة فى حوضهم جبروا

مُستهمياً هامياً ، والنّيلُ فى وجلٍ ... من أن تجود بهِ أيمانُكم حَذِرُ

تقصر النقد على البيت الثانى ، ففى معنى قوله (مستهمياً هامياً) يقول أبو تمام فى محمد بن يوسف الثغرى يذكر إمداده إياه بماله وجاهه وجرّ المنفعة اليه :

أنضرت أيكتى عطاياكَ حتى ... صار ساقاً عُودى ، وكان قضيبا

ممطراً لى بالمالِ والجاهِ ما ألـ ... ـقاكَ إلاّ مُستوهباً أو وَهوبا

ويفسر أبو تمام ذلك فيقول :

فاذا ما أردتَ كنتَ رشاءً ... وإذا ما أردتَ كنتَ قليبا

فأمّا قوله فى البيت الثانى للأمير الجليل : ان النيل من أن تجود به أيمانكم حذر ، فيقع تحت حكمين اثنين من أحكام النقد ، حكم الغلو بجاوز الحدّ فيمجّه الذوق والعقل ، وحكم المدح يضلّ السبيل فينزلق الى الضدّ ، ومن الأول قول المتنبي : يا من إذا وهب الدّنيا فقد بخلا . وقوله :

إنكَ مِن مَعشرٍ اذا وهبوا ... ما دُونَ أعمارهم ، فقد بخلوا

ومن ذلك قول أبى سعيد الرستمى فى الصاحب بن عبّاد يهنئه بدار بناها بأصبهان :

ووالله لا أرضى لكَ الدهرَ خادماً ... ولا الغيثَ مُنتاباً ، ولا البحرَ نائلا

ولا الفلكَ الدوّار داراً ، ولا الورى ... عبيداً ، ولا زُهرَ النجومِ قبائلا

وقول شهاب الدين محمود الخفاجى فى الأمير محمد بن منجك ، وفى البيتين من فساد اللغة ما ترى :

قد بشرتك بمصرَ بعضُ مَعاشرٍ ... لم يعلموا الأقوالَ فى تأويلها

مصرٌ أقلّ ندَى أياديكَ التى ... مِن فيضِ نائلها أصابعُ نيلها

أما المعنى القائم فى وجل النيل وحذره فنتزع من قول المتنبي فى ثياب أبى العشائر ، قال :

مُستحيياً مِن أبى العشائر أن أسحبَ فى غير أرضهِ حُلَلَهْ
أسحبَها عنده لدى ملكٍ ثِيَابُهُ مِن جليسهِ وَجِلَهْ

والمتنبي يخاف على نفسه من كرم ممدوحه :

قد لعمرى أقصرتُ عنكَ ، والوفـ . . . . دِ ازدحامٌ ، والعطايا ازدحامُ
خِفتُ إنْ صرتُ فى يمينكَ أن تأ خذنى فى هِباتِكَ الأقوامُ !

ومن باب المدح يضلّ السبيل فينزلق الى الضدّ ، ما يستفاد من جود الأمير الجليل (عمر طوسون) بالنيل ، فهذا الجود الذى لا تستطيعه نفسه الكريمة ، ولا تحب من يستطيعه أو يحدّث به نفسه ، وهو الذى علّمنا كيف نحبه وأمرنا أن نبخل به كل البخل — هذا الجود الفظيع المخزى ليس مما يُحبّ أو يُمدح صاحبه . وما أضلّ المتنبي رأياً وأشدّه ذهولاً وغفلة إذ يقول فى هذا الباب لسيف الدولة :

كريمٌ متى استُوهبتَ ما أنتَ راكبٌ وقد لقِحتْ حربٌ ، فانك نازلُ

وإذ يقول لكافور :

فقد نَهَبُ الجيشَ الذى جاء غازياً لسائلكَ الفـردِ الذى جاءَ عافيا

ليس هذا الذى يذكره المتنبي من الفضائل فيصدق ما أجراه عليه أو ما أراد أن يُجمّله به من ثناء ومدح . ومن جنونه فى هذا الباب قوله فى أبى شجاع فاتك :

تُعمى الضيوفُ مُشهّاةَ بعَقوَتِهِ كأنّ أوْقاتها فى الطّيبِ آصالُ
لو اشتهتْ لحمَ قاريها لبادَرَها خرادلٌ منه فى الشّيزَى وأوصالُ !

انما يعرف وجه الأمر ويجرى على حكم الصواب مَن يقول :

يجودون للراجى بكلّ نفيسةٍ لديهم سوى أعراضهم والمناقبِ

قال شاعرنا :

حتى تفاهمتْ الأرواحُ وادّكرتْ ما بينها الأهلُ والخلاّنُ والامَرُ
وآذنَ البِرُّ بالسُّقيا وما برحتْ منهم ومنك صنوفُ البِرّ تنتظرُ

وحرّكت كلُّ كفٍّ بالندى بِقَةٌ حتى تعجبتْ الأنهارُ والغُدرُ

يكثر الناس من ذكر التفاهم ولا وجود لهذه الكلمة فيما نعلم من كلام الأقدمين ، شعراً كان أو نثراً ، وقد راجعنا ما عندنا من المعاجم فلم نجدها فى مَظانّها ، وما نحسبها إلا من مخترعات كُتّاب الصحف ، وليس لتعارُف الأرواح أو لتفاهمها كما يقول الشاعر بالمعنى المعروف اليوم لهذه الكلمة من محلٍّ يقبلها أو يتسع لها فى مثل هذا المقام ، وقد ازدحم الشطر الثانى من البيت بالأهل والخلان والأمر ازدحاماً لا معنى له ولا فائدة فيه ، ففى الأهل على حدة غناء ، وما بعد الأمر من زيادة تُطلب أو علاوة تضاف ، وليس الوجه أن يذكر المصريّون ما بينهم على حد قول الشاعر الكبير فحسب بل وما بين اخوانهم الترك من الأواصر السياسية وغيرها ، وهذا ما أراده ولكنه لم يقله أمّا تعجّب الأنهار والغُدر فى البيت الثالث فليس ببعيد من قول المتنبي :

فلم نرَ قبل ابن الحسين أصابعاً إذا ما هطلن استحيتْ الدّيَمُ الوُطفُ

قال صبرى :

والناسُ إن قام يستسقى الكريمُ لهم سحائبَ الفضلِ بشّرْهم فقد مُطروا

لا يعدو هذا البيت ما قيل فى الاستسقاء وهو كثير ، فمنه البيت المشهور :

وأبيض يُستسقى الغمامَ بوجهه ثِمَالُ اليتامى ، عصمةٌ للأرامل

وقول الفرزدق : خليفة الله يُستسقى به المطر — ومنه قول البحترى :

مَليُّون أن تُسقى البلادُ غِياثَها بأوجههم حتى تسيلَ فجاجُها

وقول الرقاشى فى آل برمك :

أُصبتُ بسادةٍ كانوا نجوماً بهم نُسْقَى اذا انقطع الغمامُ

قال صبرى :

يأبى عَلاه (سعيدٍ) أن يشابهه إلا (ابنُ دوحتهِ) إن قام يفتخرُ

ما زال يحمدهُ رائيكَ مدّكِراً والأصلُ بالفرع إن حاكاه يُدّكرُ

هذا هو ختام القصيدة ، وقد رأينا أن نعفى هذين البيتين من النقد ، وإن كان معناهما شائعاً فى هذا الباب من الشعر ، ولهذه القصيدة من شرف موضوعها

وجلال ذلك المقام الرفيع الذى وُجّهت اليه ما يجعلها أميرة شعر صبرى وسيدة قصائده ، حفظ الله للاسلام والشرق أميرنا العظيم (عمر طوسون) وبارك فيه وفى سلالته الطاهرة .

معارضة بالليل الصبّ

أقريبٌ مِن دنفٍ غدُهُ ؟ فالليلُ تَمرّدَ أسْوَدُهُ
والتفتْ تحت عجاجتِهِ بيضٌ فى الحيِّ تؤيدهُ
حربٌ عندى لمسمّرها شوقٌ ما زلتُ أردّدُهُ
هل مِن راقٍ لصريعِ هوًى؟ هل مِن آسٍ يتعهدُهُ؟
حتى مَ يساورهُ كمدٌ يُبلى الأحشاءَ تجدّدُهُ
والى مَ يصارعهُ ألمٌ إن همَّ يقومُ ويُقعدهُ ؟
فى القصرِ غزالٌ تُكبرهُ غزلانُ الرّملِ وتحسدهُ
صفرتْ كفى منه ومضَى وقد امتلأت منى يدُه
كم صُغتُ التّبرَ له شركاً وقضيتُ الليلَ أنضّدهُ
وأشاورُ شوقى ، بل أدبى هل أقصرُ ، أم أتصيّدهُ
مولاىَ ! أعبدك مِن ضرمٍ لا يَرحمُ قلباً مُوقدهُ
أدركْ بحيانك مِن رمقى ما بات هواكَ يهدّدهُ
قد بان الحبُّ لذى عَيْنَيْـ .... نِ ، وهذا الشوق يؤكدهُ
(شوقى) ! جوّدْ فى الشعر وقل آمنتُ بأنك أوحدهُ !

عارض شوقى وصبرى وولى الدين يكن والأمير نسيب أرسلان قصيدة الحصرى هذه (يا ليل الصبّ متى غده ؟) فقال الأول فى مطلع قصيدته :

مُضنَاكَ جفاهُ مَرقدهُ وَبكاهُ وَرَحّمَ عُوّدُهُ

وقال ولىّ الدين :

الحسنُ مَكانَكَ مَعبدهُ واللحظُ فؤادى مَعْمَدهُ

وقال الأمير نسيب :

مُضناكَ عَصاهُ تَجلدهُ هل أنتَ بعطفكَ مُنجدهُ ؟

فنحن نرى أن هذهِ المطالع الثلاثة لم يلمس واحدٌ منها ذلك المعنى الذي استهلّ به الحصريّ قصيدته ، وأن صبري تناول هذا المعنى قائماً في بعض صوره اللفظية بلا تحرج ولا احتياط ، ثم جرى على هذا النهج في كثير من أبيات قصيدته ، حتى لقد يُخيل الى من يجهل أحكام المعارضات الشعرية أن تنازُعَ الأغراض والمعاني مما يُطلب فيها ، أو مما يباح لأصحابها ، وليس هذا بحقّ ، قال الحصري من قصيدته :

رَقدَ السُّمّارُ ، وأرّقهُ أسفٌ للبينِ يُردّدهُ
وغداً يقضي ، أو بَعدَ غدٍ هل مِن نظرٍ يتزوّدهُ ؟
نَصبتْ عيناىَ له شركاً في النّومِ فعزَّ تَصيُّدهُ
لم يُبقِ هواك له رمقاً فلتبكِ عليهِ عُوّدهُ
خدّاكَ قد اعترفا بدمي فعلى مَ جُفونُكَ تجحدهُ ؟

هذه أبيات خمسة سُقناها على غير ترتيبٍ لندلك على ما لها من الصلة من جهة اللفظ والمعنى بقول صبري :

حَربٌ عندي لمسهّرها شوقٌ ما زلتُ أردّدهُ
هل مِن راقٍ لصريع هوًى هل مِن اسرٍ يتعهّدهُ
كم صُغتُ التّبرَ له شركاً وقضيتُ الليلَ أنضّدهُ
وأشاورُ شوقي ، بل أدبي : هل أقصرُ ، أم أتصيدهُ ؟
أدركْ بحياتك مِن رمقي ما بات هواكَ يهدّدهُ
قد بانَ الحبّ لذي عينينِ ، وهذا الشوقُ يؤكدهُ

ولقد ضاق الوصف على شاعرنا وهو يذكر الليل في الشطر الثاني من مطلع قصيدته فلم يزد على قوله (فالليل تمرّد أسوده) ثم عزّ عليه أن يترك هذا السواد قائماً وحده ، فعمد إلى مذهب البديعيين وجاءنا في البيت الثاني بقوله (بيضٌ في الحيّ تؤيّده) ثم أوحت اليه كلمة (تؤيده) في هذا الشطر وكلمة (مجاجته) في الشطر الأول من البيت ، أن يجعلها حرباً مُقامة عليه ، واذا بالغبار ينجلي في البيت السابع عن

(غزال القصر) فنحن نشهد اذاً صورة مزوّدة تنبيء بالعجز عن ضبط الغرض، وتصوير العاطفة قائمة فى حدود الفن باتزان، مقبلة على شأنها فى هدى وعرفان، يقول صبرى فى غزال القصر:

صفرتْ كفى منه ومضى وقد امتلأتْ منّى يدهُ

ما زال الشعراء قبلنا يلوكون هذه المُضغة الجافة، مضغة فراغ الأيدى وامتلائها. فمنهم الشريف الرضىّ يقول فى رثاء صديق له:

فرغتْ يدى منه، وقد رجعت به أيدى النوائبِ والخطوب ملاء

وله فى غيره:

راجت وفودُ الأرضِ عن قبرهِ فارغة الأيدى، ملاء القلوبْ

ولابن المعتز:

ما فى يَدِى منه غيرُ عضّ يَدى ورُبّ بختٍ فى الحبّ مبخوسِ

ومن قول بعضهم — قد كنت أحسبُ أنى قد ملأتُ يدى — وللبهاء زهير:

ما لقلبى منكَ يا بَدْ رُ سوى خُفَّىْ حُنَيْنِ

ويَرى الحُسّادُ أنّى منكَ ملآنُ اليدينِ

قال صبرى:

كم صُغْتُ النّبرَ له شركاً وقضيتُ اللّيلَ أنضّدُهُ

وأُشاورُ شوقى بل أدبى هل أقصرُ أم أتصيّدُهُ

لا معنى لهذه المشاورة بعد مدّ الشراك ونصب الحبائل، وما أكثر هؤلاء الصيادين عندنا، ولكن يأبى أدبنا الا أن يزيد سوادهم وإلا أن يكون لكل مائة (خراش) غزال واحد أو ظبية واحدة! قال الشريف الرضى:

كم قد نَصبْتُ لك الحبائلَ طامعاً فنجوت بعد تعرّضٍ لوقوعِ

وتركتنى ظمآنَ أشربُ غلّتى أسفاً على ذاك اللّمى الممنوعِ

وقال ابن الوردى:

ورُبّ غزالةٍ طلعت بقلبى وهو مَرعاها

نَصبتُ لها شِباكاً من لُجَينٍ ثمّ صِدْناها

هذه شباكٌ من فضة ، فأما شركُ التبر الذى بات شاعرنا ينضّده والمراد به الذهب فانك واجده فى قول الأمير منجك (باشا) على لسان من يحبه :

لا تنقضى لكَ حاجةٌ عندى بشعرٍ أوْ طَرَبْ
إن رُمْتَ صيدى فى الهوى فانصبْ شراكاً من ذهبْ!

قال صبرى :

قد بان الحبُّ لذى عينينِ وهذا الشَّوْقُ يؤكّدهُ

فى البيت نكاية شديدة للذوق الفنى السليم وموضعها قوله (لذى عينين) فان هذه الكلمة الخشنة فى روحها ومغزاها تجعل البيت قطعة من الكلام الجدلى وليس هذا بموقعه ، وليس الشاعر وهو يأخذ فى مثل هذا الجدل قد أنصف المنطق فى قوله : وهذا الشَّوْقُ يؤكّده ـ فان الشَّوْقَ دعوى والدعوى منتقرة الى البيّنة . وانظر ما يقول الأبيوردى :

ومن بيّناتِ الشَّوْقِ أنى على النَّوى أموتُ لذكراهُ مراراً وأُبعثُ

ومن قول الشيخ الشبراوى :

قضيّةُ الشَّوْقِ فى فؤادى بُرهانُها بالضنى مُسَلَّمْ

نأخذ من هذا أن شاعرنا الكبير أقام الدعوى مقام البيّنة ، وهو الذى مارسَ القضاء طويلاً ، وعرف من أمره ما لا نعرف ، ولقد أكثر الشعراء من ذكر بيّنات الحبّ وشهوده ، فمن ذلك قول بعضهم :

سأعدهُ ما ألقى ، فان كذّبتِنى فعلى الدموعَ ، فانها لا تكذبُ

وقول أبى المواهب البكرى :

لا أذوقُ الكرى ، وَسَلْ أنجُمَ اللَّيْـ ..... ـلِ ، وهذا السّقامُ من بيّناتى

واليك شهود المتنبى ، قال :

شيبُ رأسى ، وذلّتى ، وتحولى ودموعى على هواك شُهودى

الحياة والموت

إن سئمتَ الحياةَ فارجعْ الى الأر ضِ تَنَمْ آمناً من الأوصابِ

تلك أمٌّ أحنى عليـــــكَ من الأمِّ التي خلقتك للأتعابِ
لا تَخَفْ ، فالموتُ ليس بمحاجٍ منكَ إلا ما تشتكي من عذابِ
كلُّ مَيْتٍ باقٍ وإن خالفَ العهـ ... ـدَ وانٌ ما نُصَّ في غضونِ الكتابِ
وحياةُ المرءِ اغترابٌ فانْ ما تَ ، فقد عادَ سالماً للترابِ

هكذا قال صبري في الحياة والموت ، وتعدّ هذه القطعة من أجود شعره وأشهره . وأكثرُ ما يأخذُ الأدباء منها ما ورد في البيت الأخير من اغتراب المرء في الحياة ، ورجوعه سالماً الى التراب ، وإن لسبَ غيرُ واحدٍ من الأدباء هذا البيت الأخير الى المرحوم مصطفى نجيب بك، ولعلك تُدرك ما في النقد من فائدة حين ترى أن شاعرنا الكبير لم يزدنا شيئاً من عنده ، وأن الناس قد يؤخذون من قِبَل أنفسهم في كثير من الأمور ، وأن المقاييس الصحيحة للأدب والموازين العادلة للأدباء لم تقم الى يومنا هذا في بلادنا وبين قومنا ، وما أبرحَ ما تجد الفنون والصناعات من أناس لو أنهم أوتوا أو رُزقوا المعرفة لتبينوا أنهم خاطئون .

وبعد فان أظهر ما يبدو لك من عيوب هذه القطعة قول الشاعر في أواخر الأبيات الأول : الأوصاب ، والانعاب ، والعذاب ، فان هذه الثلاث مؤتلفةٌ معنى وإن اختلفت لفظاً ، وما برح الرؤساء من أرباب الصناعة يتحامون ذلك . وما أعلم أيجدُّ شاعرنا أم يهزل في قوله - إن سئمت الحياة فارجع الى الأرض — لا أعلم أين هو من الخصلتين فما كل من يسأم الحياة يميت ، ولا كل من يحبها ويرغب فيها بناجٍ من الموت ، أتظنه يشير بالانتحار ويحرض عليه ؟ هذا ما أفهمه مُكرها وإن لم يرده وأين الذي يسأم الحياة أو يملّها ؟ أيغرّه قول زهير :

سئمتُ تكاليفَ الحياةِ ، ومَن يعشْ ثمانينَ حولاً - لا أبا لكَ - يَسْأمِ !

على أن زهيراً لم يسأم الحياة ، وإنما سئم تكاليفها ، وقد أغنانا المتنبي عن مثل هذا التفسير بقوله :

واذا الشيخُ قال أفٍّ ! فما مَلّ حياةً ، وإنمـــا الضعفَ ملاّ

ان ذلك النوم المريح الذي يريده صبري في البيت الأول هو بعينه ما تراه في قول المعرّي :

ضجعةُ الموتِ رقدةٌ يستريح الـ ... ـجسْمُ فيها والعيشُ مثلُ السهادِ

وانظر ما يقول في هذا المعنى :

أحنى المنازلِ قبرٌ يستراحُ به وأفضلُ اللبسِ فيما أعلمُ الكفنُ

* * *

لعمركَ ما الدنيا بدارِ إقامةٍ ولا الحيُّ في حالِ السلامةِ آمنُ

* * *

اذا عُدَّتْ الاوطانُ في كل بلدةٍ لقومٍ سُجوناً ، فالقبورُ حُصونُ

* * *

متى أنا للدارِ المريحةِ ظاعنٌ فقد طال في دار العناء مُقامي ؟

ولبعضهم :

جزى اللهُ عنّا الموتَ خيراً فانه أبرُّ بنا مِن كل بَرٍّ وآرأفُ

يُعجِّلُ إنقاذَ النفوسِ من الأذى ويُدْني مِن الدار التي هي أشرفُ

وهذه أبيات أُخَر لشيخ العرة تُريك من أين أخذ صبري معنى البيت الثاني :

والترابُ تقليهِ ظلماً ، وهو والدُنا وكم لنا فيه مِن قُربى ومِن رحمِ

* * *

نفضتَ عنّي تراباً ، وهو لي نسبٌ وذاك يُحسب من قَطعِ الفتى الرَّحِما

* * *

ووالدُنا هذا التراب ، ولم يزل أبرَّ يداً من كلِّ منتسبيهِ

يؤدّي إلى من فوقهُ رزقَ ربِّهِ أميناً ، ويعطي الصَّوْنَ مُحتجبيهِ

* * *

أتعلمُ الأرض ، وهي أمٌّ خفَّ زمانٌ فما ازدهاها

بأيِّ جُرمٍ ، وأيِّ حُكمٍ سُلِّطَ ليثٌ على تمهاها ؟

قال صبري :

لا تَخفْ فالمماتُ ليس بمحاحِ منكَ الا ما تشتكي مِن عذابِ

لا أقول إن هذا البيت بكثر من الالتفات الى قول الشريف الرضيّ :

فان لم يكن فرجٌ في الحياةِ فكم فرجٍ في انقضاء العُمُرْ

ولكنى أقول إنه يلقى فى فم المعرى حيث يقول — العيش داء والموت المرء عافيةٌ — ولقد قال المتنبي قبله : كفى بك داء أن ترى الموت شافيا — والمعرى يردد هذا المعنى :

إذا غدوتُ ببطنِ الأرضِ مضطجعاً فثَمَّ أفقدُ أوصابي وأمراضي

* * *

اذا طَفِئَتْ فى الثرى أعينٌ فقد أمنتْ من عمًى أو رمَد

قال صبرى :

وحياةُ المرء اغترابٌ فان ما تَ ، فقد عادَ سالماً للترابِ

وقال أبو السعادات الحسينى :

نحن فى دارِ غربةٍ كلَّ يومٍ يَنقضِّى جيلٌ ، ويحدثُ جيلُ
وكأنّا فى ذاكَ رَكبانِ : ركبٌ مُزمعٌ رحلةً ، وركبٌ فنُقولُ

أمّا المعرّى فيقول مرّدداً هذا المعنى فى صور مختلفة :

قد طال سيرى فى الحيا ة ، ولى ببطن الأرض مَنزلْ

* * *

فان تكُ هذى الدارُ منزلَ ظاعنٍ فدار مُقامى عن قليلٍ اوافيها

* * *

إنّا ضيوفُ زمانٍ ما قِراهُ لنا الاّ المنايا ، ونحن الآن فى اللُّهَنِ

جمع لُهْنَة ما يتعجله الانسان من الطعام يتملل به ، — هذا فى معنى الغربة ، والعودة الى الوطن ، أمّا فى معنى قوله : عاد سالماً ، فقد قال بعضُ الأوائل : رجعنا سالمينَ كما بدأنا — على أن ثمة غربةً أخرى بعد الموت هى ولا ريب شرُّ الغربتين ، فيا ويح الانسان ، وما أشدّها عظة أن يقول فيه لشيخنا المعرّى إذا مات :

لعلّ إناءً منه يُصنعُ مَرّةً فيأكلُ فيه مَنْ أرادَ ويَشربُ
ويُحملُ من أرضٍ لأخرى ، وما دَرى فواهاً لهُ بعد البِلَى يَتغرّبُ !

وانظر ما يقول فى من يُقيم لنا البيوت ويرفع القصور :

لعلّ مفاصلَ البنّاء تُضحي ... طلاءً للسقيفةِ والجدارِ

أرى بعد هذا أن قطعة صبري وكلّ ما قيل أو يقال فى معناها مغالطةً ظاهرة للنفوس ، وقد تكون تعزيةً نافعة لبعضها ، فان طبائع الحياة وحقائق الموت أشدّ قوّةً وأعظم سلطاناً من أن تذعن لأمثال هذه المغالطات ، وقديماً قيل - كفى بالموت نأياً واغترابا .

الشباب والمشيب

لم يَدرِ طعمَ العيشِ شبّا ... نٌ ، ولم يُدركهُ شِبهُ
جهلٌ يُضيلُ قُوَى الفتى ... فتطيشُ ، والمرمى قريبُ
وقُوَى نخورُ اذا تشبّـ ... ـثَ بالقُوَى الشّيخُ الأريبُ
بَيْنَا يقالُ كتبا المغفـ ... ـلُ ، إذ يقالُ حَبَا اللبيبُ
أوّاهُ ، لو عَقلَ الشبا ... بُ ! وآهِ ، لو قدرَ المشيبُ !

هذه إحدى آيات صبرى ، وإنا لنرى الصورة العامة فى هذه الأبيات تُنبيء باختلال كبير فى التصوّر ، وشطط غير متقارب الحدود فى وصف الحياة ، وكيف تكون فى الشبّان والشيب . ولو صدقت هذه الصورة لخربت الدنيا ، وسقط العالم فى مهاوى العناء . وماذا تريدُ من شباب صالّ ، ومشيب عاجز ؟ إنّ شاعرنا الكبير يُحبّ الكلام لذاته ، ويتصرّف فيه على هواه ، ولئن ذهبنا نصانعه ونقول معه إن الشباب ضلال محض وجنون صرف ، وأن المشيب عجز خالص وجمود بحت ، أتُرانا نستطيع الاعتداء على سنن الحياة فنزعم أنّ ضعف الهرم - الضعف التامّ الذى يصفه هو - يُعقب قوّة الشبيبة ونشاطها مرة واحدة . وفى يوم واحد ؟ كلاّ إنك لتعلم أن بين شرّة الشباب ووهن المشيب فسحة كبيرة من العمر ، ومسافة غير قليلة من الزمان ، فاذا العقلُ والمقدرة ، وإذا السداد والمضاءُ والقوّة المدبرة ، ولسنا نستعين بالشواهد الشعرية على إثبات فساد هذا المذهب وتعسف شاعرنا الكبير فيه ، ولكنا نستشهد التأريخ ، حوادثه وأبطاله من الفريقين - الشبان والشيب - ومن كل هذا نعلم أن الصورة القائمة فى هذه الأبيات ليست من الحقائق العامة كما أراد الشاعر أن تكون ، وهى لا تصدق الاّ اذا أجريناها مجرى الحكاية

الخاصة فى تمثيل حياةٍ بعينها لشخصٍ معين ، وإنك لترى هـذه الحياة ماثلة فى الشخص الذى تستفيده من قول أبى العتاهية :

دَبَّ فِىَّ الفناءُ سِفْلا وعِلْوَا ... وأرانى أموتُ عُضْواً فعضْوَا
ذهبتْ جِدَّتى بطاعةِ نَفْسى ... وتذكرتُ طاعة الله نِضْوَا

هذا حكمنا على الصورة العامـة فى الأبيات من الناحيـة الوصفية للحياة ، فأما الناحيـة الفنية فيهـا ، فأنت ترى أن قول الشاعر — لم يدر طعم العيش — فى البيت الأول مما لا معنى له ولا طعم فى مثل هـذا المقام ، فالعهدُ أن يقال هـذا فى لذة العيش أو ما ينافيها ، لا فيما ينبغى له من أدب ، أو يُكرهُ فيه من شطط وازورار . وليس من جديد يُستفاد فيما تحمله أبياتُ صبرى من صفةِ الشباب فى غروره وقوته وحال المشيب فى انقياده وضعفه ، قال العتبى :

قالت : عهدتكَ مجنوناً ، فقلتُ لها : ... إن الشبابَ جُنونٌ برؤهُ الكِبَرُ

وقال بهاء الدين العاملى :

قُوَاكَ وَهَتْ عِندَ وقتِ المشيبِ ... وما كان من دأبها أن تَهِى
وبِنتَ نفسك لما كبرت ... فلا هِىَ أنتَ ، ولا أنتَ هِى
وإن ذُكرت شهواتُ النفوس ... فما تشتهى غيرَ أن تشتهى

وانظر ما يقول أبو العلاء :

سُقياً لأيامِ الشبا ... بِ ، وما حَسَرْتُ مَطِيَّتِيَا
أيامَ آمُلُ أن أمَسَّ الـ ... ـمَرْقَدَيْنِ براحتِيَا
فالآنَ تعجز همتى ... عمّا يُنال بخُطْوَتِيَا

جهنم — وأين تقام ؟

يا ربِّ ! أينَ تُرى تُقامُ جَهنمُ ... للظالمينَ غدا ، وللأشرارِ ؟
لم يُبقِ عفوُكَ فى السّماواتِ العلَى ... والأرضِ ، شبراً خالياً للنارِ
يا ربِّ أهلنى لفضلكَ واكفنى ... شَطَطَ العقولِ وفتنةَ الأفكارِ

وسُرِ الوجودَ يَشفْ عنكَ لكي أرى غضبَ اللطيفِ ورحمةَ الجبارِ
يا عالمَ الأسرارِ! حسبي محنةً علمي بأنك عالمُ الأسرارِ
أخلِقْ برحمتك التي تسعُ الورى ألاّ تضيقَ بأعظمِ الأوزارِ

في البيتين الأوّل والثاني من هذه القطعة التي رفعها صبري الى الله في معرض الثقة وحسن الظن ما لا ينتظم في سلك الأدب الديني ، ولا يلائم النظام الشرعي الذي ينبغي لكل مؤمن أن يتقيد به ويرعاه - يرى الشاعر أن لا مكان لجهنم تقام فيه ، بل هو قد اطلع فلم يجد شبراً واحداً يتسع حتى لموقدٍ واحدٍ صغير من مواقد هذه النار - انّ هذا من شاعرنا لكثير ، وما هو من الثقة وحسن الظنّ بسبيل ، إنا لنؤمن معه بسعة عفو الله ورحمته ، ونعلم أنه يؤمن معنا بأن (منطقة جهنم) قائمة بأقطارها الواسعة ، وحدودها المترامية ، لا ينقصها ذلك العفو شيئاً ، ولا تطوى هذه الرحمة منها جانباً أو بعض جانب ، ذلك أن من الذنوب ذنوباً لا يعفو الله عنها ، ولا يرحم جَناتها — يؤمن شاعرنا الكريم بهذا إيماناً صادقاً ، فما باله يأخذ هذه الناحية ، وماله وهذا المسلك الوعر ؟ لقد أكثر الشعراء قبله من ذكر رحمة الله وعفوه ، فما بلغ أحد منهم حيث يقول أبو نواس :

تَكثّرْ ما استطعتَ من الخطايا فانك بالغٌ رَبّاً غفورا
ستبصرُ إن وَردتَ عليه عفواً وتلقى سيّداً مَلِكاً كبيرا
تَعَضُّ ندامةً كفّيك مما تركتَ مخافةَ النارِ السرورا

هذا ولا ريب أقربُ الى حسن الأدب وسلامة العقيدة من قول صبري ، ولأبي نواس في هذا الباب شعرٌ كثيرٌ منه قوله :

يا كبيرَ الذّنبِ عَفوُ الله .... هِ مِن ذنبكَ أكبرْ

* * *

يا ربّ إن عظمت ذنوبي كثرةً فلقد علمتُ بأنّ عفوكَ أعظمُ

* * *

ومما ينسب الى عبيد سيفان المكلي :

يا ربّ قد حَلَفَ الأعداءُ واجتهدوا أيمانهم أنّني من ساكني النارِ

أيحلفون على عمياء ؟ ويحهمُ ما ظنّهم بعظيم العفو غفّار ؟

ولعبد الرحمن بن عماد الدين الشامي :

إن قيل أيُّ سفينةٍ تجرى بلا ماءٍ وليس لأهلها من زادِ ؟
قُلْ رحمة الرحمن مَنْ أنا عبدُهُ تَسَعُ العبادَ فمن هو ابنُ عماد ؟

وانظر أدبَ المعرّى وحكمته إذ يقول :

تَغشى جهنمَ دمعةٌ من تائبٍ فتبوحُ وهى شديدةُ الايقادِ

يذهب صبرى مذهب المتصوفة فى قوله :

وَمُرِ الوجود بشفّ عنك لكى أرى غضبَ اللطيفِ ، ورحمةَ الجبّارِ

فهو يريد ان يرى الله ، ولكن لغير ما يريدون هم ، القوم يطلبون المشاهدة لذاتها ، أما شاعرنا فيريدها ليشهد نوعاً خاصاً من الجمال ، وحالة بعينها من العظم والجلال ، هو يريد أن يرى الغضب قائماً فى اللطف ، والرحمة ماثلة فى الجبروت ، وإذ كنا فى مقام التصوّف فلا مناص لنا من القول أن أدب القوم ينكر هذه العلة ويمسى معاملتها ، ثم ان هذا الذى يريده الشاعر هو من شأن الصفات الالهيّة وآثارها الشائعة فى هذا الكون . أما الذات وشهودها فشأن آخر ومطلب مستقل . ومن الاضطراب الظاهر فى البيت قول الشاعر — ومر الوجود بشفّ عنك — فالعقل والعلم الالهى على اتفاق فى أن هذا الوجود بنوعيه من كثيف أو لطيف لا يقوى على أن يحجب الله جلّ شأنه ؛ بل هو كما قال العارفون مرآة قدرته ، ومظهر صفاته ، ولعل ورود ذكر الحجب فى أقوال الذين طلبوا المشاهدة من عشّاق الذات العليّة هو الذى جرّ شاعرنا إلى هذا الاضطراب ، ولو علم — رحمه الله — أن القوم لم يعنوا بهذه الحجب سوى ما يكون على القلوب من أغشية أو أكنّة لاستقام له الأمر ونجا من هذه السقطة ، وما أراه فى قوله — غضب اللطيف ورحمة الجبار — ببعيد من قول صاحب البردة :

ولن يضيق رسولَ الله جاهُكَ بى إذا (الكريمُ) تحلّى باسم (منتقمِ)

فأمّا قوله :

يا عالمَ الأسرارِ احسبى محنةً علمى بأنك عالمُ الأسرارِ !

فشبيهٌ بقول ابن عمّار فى المعتضد :

قنعتُ بما عندى مِنَ النِّعَم التى يفسّرها قولى : قنعتُ بما عندى !

عرف صبرى أدبَ النقة بالله وحدَّها بعد الذى كان من شطط وفتنة ، فقال فى ختام كلمته :

أخلقْ برحمتكَ التى تسع الورى ألاَّ تضيقَ بأعظمِ الأوزارِ

هبوطٌ عجلى فى بعض شعره

يقول صبرى من قطعة فى الرثاء :

ألا يا تجارَ العصرِ هل فيكم امرؤٌ يبيع على صرعى الهمومِ عزاءَ ؟

يقال باعه الشىء وباعه له ومنه ، فأمّا يبيع عليه فليس من لغة العرب ، وانما يقال باع عليه القاضى إذا باع على كرهٍ منه ؛ فهو خطأ من شاعرنا ، وبيع الصبر أو نحوه ليس من المخترعات الفنية ، فقد أكثر الأوّلون من عرض هذه البضاعة وطلبها ، كما أكثروا من ذكر البيع والهبة والاعارة ونحو ذلك ، قال عبد المحسن الصّوّلى :

هلمّوا اسألوا عن سُلوٍّ يُباع واستخبروا عن كرًى يُكترَى

هل الناسُ مثلى ؟ وإلاّ فما أشدَّ القلوبَ ، وما أصبرَا

ومن المشهور قول بعضهم :

ألا موتٌ يُباعُ فأشتريهِ فهذا العيشُ ما لا خيرَ فيهِ

وقال البحترى :

وما سرّنى أنّ قلبى أُعيرَ عزاءَ النفوسِ وسُلوانها

وللمتنبى :

وَهبْتُ السُّلوَّ لمن لامنى وبِتُّ من الشوقِ فى شاغلِ

وقال الشريف الرضىّ :

وخُذِ النَّوْمَ مِن جفونى فانى قد خَلعتُ الكرى على العشّاقِ

وقال النهامي :

حليليَّ هل من رقدةٍ أستعيرها ؟ لعلي بأحلام الكرى أستزيرُها

وللشمردل بن شريك اليربوعي :

وكنتُ أعيرُ الدَّمعَ قبلكَ من بكى فأنتَ على من مات بعدكَ شاغلهْ

ولصفيّ الدين الحلي :

واقترضنا منها الدموعَ ، فقالت : كلُّ قرضٍ يجرُّ نفعاً حرامُ

وللعباس بن الأحنف :

يا أيّها الرجلُ المعذّبُ نفسهُ أقصرْ فانّ شفاءكَ الإقصارُ

نزفَ البكاءُ دُموعَ عينكَ فاستعرْ عيناً لغيركَ دمعها مدرارُ

مَن ذا يعيركَ عينَهُ تبكي بها أرأيت عيناً للبكاء تُعارُ ؟

ومن المفايضة في صورة البيع قول صاحب الكبد المقروحة :

ولي كبدٌ مقروحةٌ ، مَن يَبيعني بها كبداً ليست بذاتِ قروحِ ؟!

أباها عليَّ الناسُ ، ما يشترونها ومَن يشترى ذا علةٍ بصحيح ؟

وقال ابن خازن الكاتب :

وَافى خيالكِ ، فاستعارت مقلتي من أعينِ الرقباءِ غمضَ مُروِّعِ

وأظنُّهم فطنوا ، فكلٌّ قائلٌ : لو لم يَزُرْهُ خيالُها لم يهجعِ !

قال صبري بعد البيت المتقدم :

إذا دلني منكم على مثلهِ فتى خلعتُ عليهِ ما يشاءُ جزاءَ

يريدُ من يبيع العزاءَ فلا معنى لقوله على مثله ، ولا ندري لِمَ يقصر جزاء من يدلّه على ما يُخلع ؟ لعله استبقى سواه مما يملك ليكون ثمناً للعزاء يؤديه الى التاجر (. . .) قال :

يخالهم الرائي سُكارى من الأسى فيبكي عليهم رحمةً ووفاءَ

وقال الله تعالى (وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكنّ عذاب الله شديد) وللمتنبي :

عليلُ الجسم ، مُمتنعُ القيامِ شديدُ السكر مِن غيرِ المدامِ

وله :

أفيقا ! خُمارُ الهمّ بَعْضِي الحرا وسُكرى من الأيام جَنَّبَنِي السكرا

ولبعضهم : (سُكرانُ من خمر الفراق معذّب) . وقال مهيار الديلمي :

لا سَكرةُ البلوى ببابلَ بعدكم تصحو ، ولا ليلُ البلابل يُصبحُ

قال صبري :

لو انّ قلوبَ الناس طوعُ إرادتي قلبتُ الأسى في بعضهنّ (هناء)

ولو طاوعتني كلّ عينٍ قريحةٍ لما ذابَ بعضُ الباكلينَ بُكاء

ندع قوله (هناء) في البيت الأول معلقة ونضع جانباً قوله : طوع ارادتي ، وطاوعتني في هذا البيت والذي بعده ، وننظر الى المعنى من حيث هو ، فالشاعر يريد في البيتين أن يكون رحيماً بالناس فيفرغ الصبر على ذوي القلوب الجريحة ، ويمسك الدمعَ أن يسيل من عيونهم ، ولكنه يميل من مراده مأخوذاً بقوةٍ لا نعلم ماهي ، فاذا هو يخصّ بهذه الرحمة بعضاً من الناس ، واذا هو يصغر ويتضاءل فيدعك حائراً لا تدري كيف تجمع شطريه ، وتؤلف بين رأييه ، ولِمَ يكون بعض الناس أولى بالرحمة من بعض والمصاب واحد ، وباعث الرحمة في نفسك هو ما تجد من ألم المصابين وتحسّ من عذابهم ؟ وما كان لمن يريد أن يصيب بعض الناس برحمته ويصرفها عن الكثيرين منهم أن ينزع الى أن تكون له الولاية على كل القلوب والعيون كما هو الحال في البيتين ، ولقد كان الأمر يستقيم له ـ وهذا شأنه ـ لو انه طلب أو تمنى أن يكون الصبر في يده فيسكبه برداً وسلاماً على قلوب من يشاء من صرعى الأحزان وجرحى الهموم ، وليس هذا ثم ينتهي الأمر ، فقد نسيَ الشاعر نفسه ، وتجرّد في هذين البيتين عن شاعريته ، بل هو قد فعل ذلك وجرى عليه وهو يستهل كلمته يسأل التجار عن بائع الصبر ، ويطلب أن يدلوه عليه ! أيّ صبر هذا الذي ينشده صبري الشاعر العظيم ، واذا كان الصبر لا يؤخذ من فم الشاعر ويرتشف من بين شفتيه فمن يأخذ اذاً وأين يوجد ؟ ولمَ لا تكون قلوب الناس وعيونهم وكلّ جوارحهم وقواهم حيث يحبّ ، وكيف يشاء ؟ نريد التلطف ، ويأبى لسان النقد الا أن يقول « بلادة » ـ ورحم الله صبري ، وما أبعده في هذه القطعة عن نفسه . قال من قطعة أخرى غرامية :

أبنّكِ ما بى ، فانْ ترحمى رحمتِ أخا لوعةٍ ماتَ حُبّا
وأشكو النوى ، ما أمرّ النّوى على هائمٍ إن دعا الشوقُ لبّى
وأخشى عليكِ هُبوبَ النسيم وإن هو من جانبِ الرّوض هبّا
واستغفرُ اللهَ مِن بُرهةٍ من العمرِ لم تلقنى فيك صبّا
تَعَالىْ نجدّدْ زمانَ (الهنـاء) وننهبْ لياليَهُ الغُرّ نهبا
تَعَالىْ أذقْ بك طعمَ السلام وحسبى وحسبك ما كان حربا!

فى البيت الأول رَجُلٌ مات ، وشأن من مات أن يقول ما قال شرف الدين ابن عبد العزيز الانصارى :

ذُبتُ شوقاً ، فعالجونى بقربِ ! مُتُّ عشقاً ، فحنّطونى بقُبْلهْ !

أقول الجدّ ، إنى لا أعرف ما هـذا الموت الذى يكثر الشعراء من ذكره وادّعائه ، فصبرى يموت ويُبعث فى بيت واحد ، والمتنبى يموت مثله ويُبعث فى بيته الذى يقول فيه :

فلم أرَ بدراً ضاحكاً قبلَ وجهها ولم تَرَ قبلى ميّتاً يتكلّمُ !

والأبيوردى يموت مراراً ويبعث مراراً فيما يقول :

ومن بيّنات الشّوق أنى على النّوى أموتُ لذكراها مراراً وابعثُ!

أما صاحبنا البهاء زهير رحمه الله فيقول :

أنا الذى متُّ حقّا تعيش أنتَ وتبقى

أعلم أنهم يريدون بمعنى الموت وأثره قائمين فى صورة أخرى من الحياة المريضة أو المعطّلة إلى حدٍّ ، ولكنى لا أحبّ أن يشيع هذا الصدأ الأكّال فى الشعر وأن يكون كأمرٍ لا بدّ منه فى كلّ موطن من مواطن العنف الوصفى لحالات الحب أو ما يشابهه ، ولقد استلذّ جرير هذه النغمة — أو سخر بها وهو أقرب — فقال:

كاد الهوى يوم سلمانينَ يقتلنى وكاد يقتلنى يوماً بنعمانِ
وكاد يقتلنى يوماً بذى خشبٍ وكاد يقتلنى يوماً بسلمانِ !

ذكروا عن الأصمعىّ أنّ أعرابياً سمع جريراً ينشد هذين البيتين فقال : هـذا رجل أفلت من الموت أربع مرات فلن يموت أبداً ! وبعد ، فليس فى البيت الثانى

من أبيات صبرى سوى مرارة النوى وتلبية الشوق اذا دعا ، وهل ترك الأوائل من هذا شيئاً لقائل ! لقد قدّمنا من قبل ألواناً كثيرة من هذه المرارة ، وهذا مثال مما قيل فى هذه التلبية وهو حسبك — دعانى الهوى فيه فلبّيتُ طائعا — يقول صبرى :

وأخشى عليك هبوبَ النسيم وإنْ هو مِن جانب الروضِ هَبّا

إمّا أن تكون هذه الخشيه التى تأخذ شاعرنا خشيةً مطلقةً باعثها الحنان ورقة القلب فهى إذاً من النوع الذى يُستفاد من قول حطّان بن المعلّى :

وإنما أولادنا بيننـــــا أكبادُنا تمشى على الأرض
لو هبت الريحُ على بعضهم لامتنعتْ عينى من الغمض

وإما أن تكون حالاً من الغيرة التى يولع بها المحبُّ ، فهى لا تعدو حال ابن هانى فى قوله :

أغارُ عليه أن تجاذبَهُ الصَّبا فُضولَ بُرودٍ ، أو ذُيولَ غلائلِ

ويقول ابن سهل الاسرائيلى فى المعنى :

وَجْهٌ أرقُّ من النسيمِ ، يُغيرُنى مَرُّ النسيمِ بجسمهِ وهُبوبُهُ

وعلى كلا الوجهين فلا جديد فى البيت ، ولك أن تضم الى هذا القديم قول الشاعر :

خطراتُ النسيم تجرح خدَّيْـ ـه ، ولمسُ الحرير يُدمى بَنانَهْ !

وفى القطعة مآخذ أخر تصرفنا العجلة عنها ، قال صبرى :

يا وامضَ البرقِ كم نبّهتَ من شجنٍ فى أضلع ذهلتْ عن دائها حينا
فالماءُ فى مُقلٍ ، والنارُ فى مُهجٍ فـد حار بينهما أمرُ المحبّينا
لولا تذكرُ أيام لنـا سـلفت ما بات يبكى دماً فى الحىّ باكينا
يا نسمة ضمّخت أذيالها سحراً أزهارُ أندلسٍ هُبّى بوادينـا

ذلك شعرٌ هرم ، عليه وسمٌ من الأيام والقِدم ؛ ولقد جُنُّوا بالبرق فهو يضحك لهذا الجنون ، ويعجب كيف صار حديث الأجيال وذكر القرون ، فأما الماء والنار فبئست الصلة ، ولا كان الجوار ! لقد قال الأولون ـ عفا الله عنهم ـ ما جاوز الحد ، فما بال شاعرنا الكريم يأبى الا أن يزيدنا ؟ قال الشريف الرضى :

الماءُ فى ناظرى ، والنارُ فى كبدى إن شئتَ فاغترف ، أو شئتَ فاقتبسِ

وقال :

إذا تلفّتُّ فى أطلالها ابتدرت للعينِ والقلبِ أمواهٌ وتيرانُ

وقال أبو الطريف شاعر المعتمد العباسى :

واحرَبا من فراقِ قومٍ هُمُ المصابيحُ والحصونُ
والأُسدُ ، والمزنُ ، والرواسى والأمنُ ، والخفضُ ، والسكونُ
لم تتنكر لنا الليالى حتى توفّتهم المنونُ
فكلُّ نارٍ لنا قلوبٌ وكلُّ ماءٍ لنا عيونُ

وفى حدّ ما قيل فى هذا الباب كثرةَ قولهم فى النسمات وأذيالها ، ومن ذلك قول ابن معتوق :

وتنفّسَ النسرينُ عن عبقٍ منه بأذيالِ الصَّبا عطرُ

وقول سيف الدين بن المشدّ :

وصَبًا سرت من قاسيونَ ، فسكّنتْ بهبوبها وصَبَ الفؤادِ البالى
خاضت مياهَ النيربينِ عشيّةً فأتتك ، وهى بَليلةُ الأذيالِ

قال صبرى من قطعة أخرى :

يا مقرَّ الغزال قد صحّ عندى ا ..... يومَ أنى اقتحمتُ منكَ عرينا

ينظر شاعرنا فى هذا الى قول ابن منجك :

بىَ ربمٌ كناسهُ المرّانُ ما لقلبى من ناظريهِ أمانُ

أو إلى قوله وهو أقرب :

أفديكَ ظبياً أرنجيـ .... ـكَ وأتّقى سطواتِ باسكْ
تخشى الأسودُ مهابةً من أن تمرّ على كِناسكْ

كلمة الختام

ينزع صبرى فى شعره الى طريقة الكتّاب ، وهم على تصرفهم فى مذاهب القول وفنونه ، وتأنقهم فى أحكام الصناعة ، فلما تسمو بهم منازلهم الى مَن فوقهم من

الشعراء المبرّزين ، وهو يسير على قدمهم فى تناول الصُّور والمعانى وتلوينها بعد أن يجاد سبكها ، وتحكم صياغتها ، وانّ منها لَما يكون لغيرهم ، وانك لتجد فى جديدهم من حلاوة ولذة ما يكون كالرشوة لك على إجازة ما تناولوا من ذلك القديم ، وقد امتدح شيوخ الأدب هؤلاء الكتاب وأثنوا عليهم ، فقيل انهم (دهاقين الكلام) ومن رؤسائهم ابراهيم بن العباس الصولى ، والحسن بن وهب ، ومحمد بن عبدالملك الزيات ، وسعيد بن حميد ، فمن قول ابراهيم فى الفضل بن سهل :

لسهلِ بنِ فضلٍ يدٌ تقاصرَ عنها المَثَلْ
فباطنها للنَّدى وظاهرُها للقُبَل
ونائلها للغِنى وسطوتُها للأجَلْ

ولابن الزيّات :

قامَ بقلبى وقعدْ لمّا نفى عنّى الجَلَدْ
يا صاحبَ القصر الذى أسهرَ عينى ، ورقدْ
واعطشى الى فمٍ يمجُّ خمراً مِنْ بَرَدْ!

وله :

ما أعجبَ الشّىءَ ترجوهُ فتُحرمهُ قد كنتُ أحسبُ أنى قدملأتُ يدى !

ذلك حيث ينزع صبرى ، وانه على ما ترى من أمره لشاعر ، وانما أنت منه بين بيتين ان شئت فقولُ البحترى :

ولربما عَثَرَ الجوادُ ، وَشأوُهُ متقدّمٌ ، ونبا الحسامُ القاطعُ

واذا شئتَ فقولُ المعرّى :

والإنسُ مثلُ نظام الشعر ، كم رجلٍ يُفدَى بجيشٍ وكم بيتٍ بديوانِ

رحم الله صبرى ، وغفر لنا وله ، وهذا مارثيتُه به :

صَدَعتَ قُوى الحدثانِ ، فانهاض كلكلُ وَخفَّ من الأعباء ما كنتَ تحملُ
تحوّلتَ تُرثادُ المنازلَ سمحةً فطابَ لك المرتادُ والمتحوَّلُ
ديارٌ تُجافيها الهمومُ ، وجيرةٌ كهمّكَ ، لا جافٍ ، ولا متنقِّلُ
تناهتْ خطوبُ الدهرِ عنكَ مروعةً وولّتْ على أعقابها ، وهى جُفَّلُ

لكَ المعقلُ الراسي على الدهر، إن هوتْ ... شماريخُ رأسٍ ، أو تزلزلَ معقلُ
اذا احتلّهُ ذوالضعف، لم تُغنِ عندهُ ... سلاهيبُ جُردٌ ، أو مغاويرُ بُسّلُ
ترى الأرضَ ما لاذتْ به فى مفاضةٍ ... من الأمنِ ، تُضفيها السّماواتُ من عَلُ
تُشيرُ ، فيستخذى بها كلُّ طامحٍ ... ويَعنو لها جبّارُها المتوغّلُ
سواءٌ عليها مستبدٌّ وعاجزٌ ... وسيّانِ فيها ذو سلاحٍ وأعزلُ

* * *

أمنزلَ (اسماعيلَ) جَوُّكَ طيّبٌ ... ووادِيكَ مأمونٌ ، وجارُكَ مُجْمِلُ
تَزيّلكَ عصرٌ للأعاريبِ كابرٌ ... وضَيْفُكَ جيلٌ للنوابغِ أمثلُ
هوى القائدُ المقدامُ فيكَ ، وغالنا ... لدَى الكرّ ما جَرّ السّلاحُ المفلّلُ
ضجيعُكَ مجدٌ للمالكِ باذخٌ ... وأنتَ لمُلكِ (الضادِ) مَثوًى ومنزلُ
يلوذُ بكَ (التاجُ) المعفّرُ ضارعاً ... ويهفو حَوَاليْكَ (السّريرُ) المُعطّلُ
أرى دولةَ الآداب زُلزِلَ صَرْحُها ... وباتت صياصيها العُلَى تتهيّلُ
ورُوِّعَ من أبطالها كلُّ مِحْرَبٍ ... وطاحَ المرجّى للحفاظِ المؤمّلُ
فتى البأسِ ، لا رَثّ السلاحِ اذا انتحى ... ولا هو بالوانى ، إذا نابَ مُعضلُ
فما كان من صُنعٍ جميلٍ حَمِدْتُهُ ... على الدّهرِ إلاّ صُنْعُهُ هو أجملُ
حَمَى سُؤْددى بالغيبِ ، فارندٌ مُوعدى ... وأقصرَ عنى ذو التميمِ المضلّلُ
فأصبح (ذوالتاجَيْنِ) قد ثابَ رأيهُ ... وأصبحتُ ما فى جانبى متعلّلُ
كبا الجَدُّ بالواشى المحبِّ سعيُه ... وطاح بمزجيهِ الحديثُ المهلهلُ
وما كان إلاّ أن ضننتُ بذمتى ... كما ضنّ قبلى بالدروعِ (السمؤالُ)
لئن بزّ أعلامَ البلاغة قائلاً ... فأبلغُ مما قال ما كان يَفعلُ
منَ القومِ ، سَادُوا بالرّوائعِ جُوّلاً ... تُصايُرها منهم صنائعُ جُوّلُ
إذا القولُ لم يَنصرهُ خُلْقٌ مهذّبٌ ... فلا تكُ من أنصارهِ حينَ يُخذَلُ
إذا ما التمسنا الصّبرَ ، نرجو ثوابَهُ ... أبتْ أنفُس منا عجازيعُ تُكْلَلُ

هَوَى السَّابحُ الضافي الجناحين، وارعوى ... عَنِ الأمدِ الأقصى الأغرُّ المحجَّلُ
أقولُ (لإسماعيلَ) إذْ خَفَّ ركبُهُ ... وأزعجهُ داعٍ مِن البين مُعجِلُ
عليكَ سَلامُ الفاضلين مُباركاً ... فانكَ أنت العبقريُّ المفضَّلُ
مَضى الشِّعرُ يهوي في رحالك، وانطوى ... سَنَا الوحي فيهِ، والبيانُ المفصَّلُ
وإنك إذ تَفْتَنُّ في معجزاتهِ ... لَدُو بيِّناتٍ بالأعاجيبِ مُرسَلُ
كأنَّ انْصِداعَ البرقِ فَيْضُ شُعاعهِ ... إذا استنَّ في إيماضهِ يتهلَّلُ

* * *

ذوى الرَّوضُ، حتى ما يُحيِّيهِ ناضرٌ ... وأقفرَ، حتى ما يغنِّيه بلبلُ
إذا هاجَهُ سِربٌ مِنَ الطيرِ ناعبٌ ... تداعى به سِربٌ يَرِنُّ ويعولُ
يُناشدُ أنفاسَ الصَّبا، يستزيرُها ... فتأبى، ويستسقي الغمامَ فيبخلُ
إذا مادَنتْ مِنْ جانبيْهِ، تنكبتْ ... تَحيدُ، ومَرَّتْ خِفيةً تتسللُ

* * *

سكتَّ، فما يَزهَى البلابلَ بالضُّحَى ... مِرَاحٌ، ولا يغشى الخمائلَ أخيَلُ
لصَوْتُكَ حادي الدَّهر، إنَّ شَفَّهُ الونى ... وهاديهِ، إن أعيَا على الركبِ مَجهلُ
ولن تَنقُضَ الأجيالُ ما أنتَ مورِثٌ ... وإن جَلَّ ما تمتاحُ منهُ وتَبذلُ
يزيدُ ويؤتى فضله كلَّ معتفٍ ... وإنْ لجَّ مِتلافٌ وأفرط مُجزلُ
لجيلِكَ فيها نِعمةٌ لم يَجُدْ بها ... على قومهِ ذو النِّعمةِ المتطوِّلُ
تظلُّ إذا استسقتْ أساكيبَ جُودهِ ... تُعَلُّ بمسولِ النِّطافِ وتُنهَلُ
إذا ما ذكرنا الأولين لواجبٍ ... مِنَ الحقِّ نقضيهِ، فذكرُكَ أوَّلُ

أحمد محرم